# المشهد الثالث

# لندنستان

obeikandl.com

obeikandl.com

**أبطال المشهد:**

- **جيل:** ضابط جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) الذي قام بتوظيف عمر في بروكسل

**فاطمة:** شابة يقابلها عمر في باريس

**دانييل:** ضابط في الجهاز السري البريطاني

**أبو قتادة:** رجل دين في نادي شباب الريشات الأربع

**أبو الوليد:** نائب أبي قتادة في نادي شباب الريشات الأربع

**خالد:** شاب جزائري على علاقة بالجماعة الإسلامية المسلحة؛ يتردد على نادي شباب الريشات الأربع ثم لا يلبث أن يأخذ عمر إلى مسجد حديقة فينزبوري

**سمير:** شاب جزائري على علاقة بالجماعة الإسلامية المسلحة؛ صديق خالد

**أبو حمزة:** رجل دين في مسجد حديقة فينزبوري

**عمر بكري محمد:** رجل دين مؤيد لأبي حمزة خلال السجال مع القاعدة

**علي توش:** 'طارق' من بروكسل؛ العقل المدبِّر المزعوم لتفجيرات مترو باريس عام 1995

**الكساندر:** ضابط جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الي جي اس إي DGSE)؛ يحل محل جيل في لندن

**مارك:** ضابط جهاز سري بريطاني؛ يحل محل دانييل

**بني:** ضابطة جهاز سري بريطاني

**عبد الحق:** مدرب مغربي من خالدان

obeikandl.com

## تسلسل زمني:

1995/11/4: اعتقال رشيد رَمْضا في لندن بالارتباط مع تفجيرات متروباريس في 1995.

تشرين الثاني/نوفمبر، 1996: بيان صادر عن أمير الجماعة الإسلامية المسلحة عنتر الزوابري يعلن فرض الشريعة في الجزائر.

تشرين الثاني/نوفمبر، 1996: يقال إن علي توش موجود في لندن.

خريف 1996: أبو حمزة يبدأ الوعظ في مسجد حديقة فينزبوري؛ أبو قتادة يدين الجماعة الإسلامية المسلحة.

1996/12/13: انفجار قنبلة في أحد قطارات البير PER تحت محطة بورت ـ رويال بباريس، 4 قتلى 180 جريحاً.

آذار/مارس 1997: استيلاء أبي حمزة على مسجد حديقة فينزبوري.

1997/3/29: مذبحة تقترفها الجماعة تودي بحياة المئات في قرية سيدي مسعود الجزائرية.

تشرين الأول/أكتوبر 1997: أبو حمزة يدين الجماعة.

1997/2/23: بدء محاكمة 39 إسلامياً على علاقة بتفجيرات مترو باريس 1995 في باريس.

1998/2/13: السلطات الحكومية الجزائرية تعلن أن علي توش قُتل في الجزائر في أيار/مايو 1997.

1998/2/18: محكمة باريسية تحكم على 36 شخصاً على علاقة بتفجيرات مترو باريس في 1995؛ علي توش يُحْكم غيابياً بعشر سنوات سجن.

1998/2/23: أسامة بن لادن وأيمن الظواهري يصدران فتوى تدعو إلى الجهاد ضد الأهداف العسكرية والمدنية في طول العالم وعرضه.

1998/3/5: اعتقال فريد ملوك في بروكسل بعد تبادل إطلاق النار مع البوليس البلجيكي.

1998/5/26: الشرطة في فرنسا، بلجيكا، ألمانيا، إيطاليا وسويسرا تلقي القبض على عشرات نشطاء الجماعة المشبوهين في سلسلة من المداهمات.

1998/8/7: مقتل 271 وجرح الآلاف في هجومين على السفارتين الأمريكيتين في نايروبي الكينية ودار السلام التانزانية.

obeikandl.com

## جسر غَلَطه

كانت أمسية ربيعية جميلة وكنت أحتسي الخمر فوق جسر غلطة الاستانبولي مطلاً على القرن الذهبي. السياح متزاحمون. قوارب شراعية في البوسفور، صيادو سمك فوقي على الطبقة العليا من الجسر. صناراتهم عانقت الشمس عند إلقائها في الماء.

أسبوع كامل كان قد انقضى على تركي لابن الشيخ وأبي زبيدة في بيشاور. كان هذا أحد أخطر أسابيع حياتي. الطريق إلى إسلام أباد والمدينة نفسها كانتا مبتليتين بأعداد كبيرة من الشرطة والجواسيس الدائبين على البحث عن العرب لاعتقالهم. أنا نفسي كدت أتعرض للاعتقال حين وقعت في خطأ تمكُّن أحد كَتَبَة الفندق من رؤية جواز سفري وعليه تأشيرة الإقامة المنتهية مُدَّتُها. غير أنني استطعت، بعد قدرٍ كبير من القلق إضافة إلى الحصول على مساعدة موظف بالغ السذاجة في السفارة المغربية، أن أحصل على الأوراق الضرورية.

في تلك اللحظة كنت فاقداً للأمل من الخروج من الباكستان إلى درجة أنني قمت بالرحلة الجوية الطويلة إلى حد العبث من إسلام أباد إلى استانبول عبر أبو ظبي والقاهرة. لم أبال؛ وجدت السكون داخل الطائرة مريحاً على نحوٍ لا يصدق بعد عام كامل من الإجهاد المتواصل. أعتقد أنني أرعبت المضيفة في الشوط الأول من الرحلة إذ طلبت، بعد الإجهاز على وجبة الطعام المقدمة في الجو، أربع وجبات أخرى، الواحدة بعد الثانية. بدت الوجبات شهية على نحوٍ مطلق.

اتصلت مع جيل فور وصولي إلى استانبول. أقله حاولت أن أفعل - رقم الهاتف الذي استخدمته دائماً كان قد قُطع. لم أُفاجأ.

لم يكن في جيبي سوى بضعة دولارات. كنت قد أنفقت المبلغ الذي كان جيل قد زوَّدَني به كله في المعسكرات. كنت قد أعطيته لابن الشيخ كي يشتري طعاماً

ومؤناً وأسلحة. ذهبت إلى الفندق الذي كنت قد نزلت فيه من قبل. توقعت أن يتذكروني، صَدَقَ حَدْسي. أطلعتُ موظف الاستقبال على حاجتي للذهاب إلى البنك لسحب بعض المال لأتمكن من الدفع، فسمح لي بالصعود مباشرة إلى الغرفة.

ثم ذهبت إلى القنصلية الفرنسية. تصرفت تماماً كما كنت قد فعلت في المرة السابقة التي كنت فيها باستانبول وبحاجة للإمساك بجيل. أفهمت حارس الباب أنني مواطن فرنسي أضاع جواز سفره. توجهت إلى الغرفة التي كنت قد توجهت إليها بالذات، وعلى الفور رأيتُ الرجل نفسه. بدا شديد الاندهاش برؤيتي. دعاني إلى وسط الغرفة وطلب مني رقم هاتف المكان الذي يمكن العثور علي فيه بصوت هامس.

بعد ساعتين اتصل جيل معي في فندقي. سأل: 'كيف حالك؟ كيف كانت رحلتك؟' كلماته كانت ودودة وصوته مثقلاً بعدم التصديق.

'أنا بخير، شكراً. كانت رحلة عظيمة، وإنْ طويلة قليلاً.' تحدثت كما لو كنت عائداً من إجازة لم تدم سوى أسبوعين. 'نَفَدَ ما كان معي من أموال.'

'لم يعد معك أي مال؟'

'نحو عشرة دولارات فقط.'

'أستطيع أن أتدبر الأمر.' قال جيل 'انتظر مني اتصالاً خلال نصف ساعة.'

حين عاود جيل الاتصال قال لي إن المبلغ كان في الطريق. أضاف أنه مشغول جداً الآن ولكنه كان سيأتي إلى استانبول في غضون ثلاثة أيام.

قال جيل: 'عليك أن تأخذ قسطاً من النوم من الآن إلى ذلك الوقت. استرخِ.'

بعد ساعة، اتصل مكتب الاستقبال ليبلغني بأن طرداً كان ينتظرني. نزلت إلى الاستقبال قام المناوب بتسليمي ظرفاً. كان الظرف محشواً بمئات الدولارات.

وهكذا فإنني وجدتُني مسترخياً ذلك المساء فوق جسر غَلَطه مع الغروب وأمامي وجبة عشاء شهية من لحم الخروف والسمك مدعومة بالنبيذ التركي. شعرت كما لو كنت فوق قمة العالم. لم يكن قد سبق لأحد أن صَدَّقني؛ ما من أحد كان قد اعتقد بتوفري على شيء أقدمه. كان جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) مستعداً لإيداعي السجن وغسل اليدين مني. ثم حاول الجهاز أن يدفع لي مقابل الاختفاء. غير أني ها أنا ذا الآن، عائد من معسكرات التدريب الأفغانية ومعي كنوز من المعلومات. لم يكن الجهاز سيحاول الخلاص مني هذه المرة. إنه بحاجة إلي.

نمت ست عشرة ساعة متواصلة تلك الليلة، وحين استيقظتُ توجهتُ إلى أحد الحمامات. قلت للحاجب إنني كنت سأدفع ضعف المبلغ إذا ما حصلتُ على حمام جيد فعلاً. دَلَّني على مُكَيِّس قادني إلى المشلح. خلعتُ ملابسي ودخلت المَقْلى. غرقت في بحر من البخار.

مع شروع المكيّس في فرك جلدي بإسفنجة خشنة، أدركت أنه كان علي أن أدفع له عشرة أضعاف الأجرة. كان هذا هو الحمام الحقيقي الأول الذي أحصل عليه منذ وصولي إلى الباكستان. بالطبع كنا قد اغتسلنا في النهر بخالدان وفي البحيرة بدارونتا، غير أنني لم أنْظَفْ تماماً طوال فترة وجودي في المعسكرات.

دام فرك المكيِّس لجسمي كله أكثر من ساعة. حَمْلَقْت في الماء السائل باتجاه البالوعة . وجدته أسود اللون كثيفاً.

كنت مرهقاً حين خرجت من الحمام فعدت إلى الفندق ونمت عدداً إضافياً من الساعات. ثم تجولت في المدينة واهتديت إلى مطعم يطل على مرسى آتاكوي.

مع طلب زجاجة النبيذ الأولى وإشعال سيجارة، تأملت مدى سهولة قيامي بخلع ثوب المجاهد - سهولة موازية لسهولة ارتدائي لذلك الثوب. كنت قد بدأت أدخن من جديد خلال أيامي الأخيرة في الباكستان لأثبت أنني لم أكن أحد المتطرفين العرب. ومن قال إني كنت متطرفاً عربياً؟! كنت أوروبياً.

وهنا في استانبول ها أنا ذا أعود بسرعة إلى التناغم مع إيقاعات الحياة في الغرب. ثمة النبيذ، الطعام، الشراشف. منذ لحظة وصولي استغرقت في متابعة البرامج التلفزيونية: السي ان ان CNN، البي بي سي BBC مهما كان البرنامج. تذكرتُ مدى تعطّشي للأخبار في المعسكرات. هناك لم نكن نسمع سوى نتف عبر الراديو، وفي المناسبات النادرة التي كنا نحصل فيها على جريدة مضى على صدورها عدد من الأسابيع. في المعسكرات لم نكن نحس بمرور الوقت إلا مع عبور الشمس للسماء والتعاقب البطيء للفصول. كنا في عالم يخصنا وحدنا.

في البداية، تصورتُ الأمر مفتاحاً، شيئاً أديره فَتْحاً وإغلاقاً في داخلي حسب الطلب من أجل الدخول في دور معين. ما من جاسوس إلا ويكون بحاجة إلى مثل هذا المفتاح، مثل هذه القابلية لإغلاق أجزاء كاملة من نفسه أشهراً بل أعواماً متواصلة. كنت قد أدَرْتُ هذا المفتاح في المطار بإسلام أباد قبل عام.

إدارة المفتاح إلى الجهة المعاكسة كانت أسهل من ناحية وأصعب من ناحية أخرى. أسهل لأنني كنت أعشق حياتي وحريتي في الغرب. فبمقدار ما كنت أكره نفسي فيه، كنت مولعاً بالنعم وأسباب الرفاه وجميع الأشياء المادية التي دأبتُ على شجبها بوصفي مجاهداً.

غير أن هذا التحول كان أكثر صعوبة، أيضاً، لأنني كنت قد تغيرت خلال فترة غيابي. كنت قد تعلمت شيئاً جوهرياً عن نفسي. كنت قد تعلمت أنني كنت مسلماً في العمق. بالطبع كنت قد عرفت هذه الحقيقة منذ زمنٍ طويل، من

البداية وعلى الدوام. كنت دائم الإيمان بالله. ومنذ سنواتي الأولى في المدرسة الكاثوليكية خارج بروكسل كنت قد أدركت أنني، بوصفي مسلماً، كنت شيئاً خاصاً. غير أن ذلك الشعور لم يتجاوز هذه الحدود.

في بلجيكا، كثيراً ما كنت أسخر من حكيم والآخرين على وَرَعهم واستعراضهم للتقوى أما الآن فلم أعد متأكداً. في المعسكرات كنت قد التقيت بأناس من عددٍ كبيرٍ من الأمم والطبقات والجماعات العرقية المتباينة كانوا جميعاً يتقاسمون شيئاً واحداً: كانوا جميعاً مدفوعين بنفس نار محبة الإسلام وأوطانه. هذه النار كانت تحركني أنا أيضاً. أحياناً كانت تلتهمني على نحوٍ شبه كامل.

حصلتُ على تعليمي في الغرب وذهبتُ إلى أفغانستان جاسوساً. لم أكن هناك إلا لمحاربة هؤلاء الإرهابيين، هؤلاء الناس الدائبين على ذبح النساء والأطفال في ساحات الذبح والقتل بالجزائر. إذا بقيتْ النار متقدة في داخلي رغم كل هذا، فقد كانت دائبة، بالضرورة، على حرق قلوب الشباب المسلم في كل مكان؛ أليس كذلك؟

كنت أعلم أنني لم أكن قادراً قط على مواكبة الرجال الذين كنت قد التقيتُهم في أفغانستان حتى آخر الشوط. من المؤكد أنني لم أكن مستعداً للوصول إلى حيث وصل أولئك الرجال في ساروبي، أولئك الذين كانوا قد عذَّبوا وقتلوا شقيقاً مسلماً بعد الاستسلام. إن آيات التطرف والغلو هي التي قلبتْني رأساً على عقب آخر المطاف - يا للهوَّة السحيقة والواسعة الفاصلة بين اللاهوت الذي كنا نتلقنه من جهة، والمعارك التي كانت تخاض على الأرض من الجهة المقابلة!

إلا أنني كنت، مع ذلك، أتفهم هؤلاء الرجال، وإن بقيت حريصاً على أن أنأى بنفسي عن مناهجهم. كنت أتفهم غضبهم وسخطهم الشديد إزاء تعرض المزيد

من أرضهم للسرقة والنهب. الأمكنة كلها من القدس إلى أفغانستان فالبوسنة والجزائر وبلاد الشيشان كانت واحدة بنظرهم. وهذه لم تكن إلا أحدث تجليات رحى حرب ظلت دائرة منذ قرون، حرب أبدية ضد الإسلام. لم يولد المجاهدون قَتَلة. وُلدوا مسلمين، وبوصفهم مسلمين كانوا مسؤولين عن الدفاع عن أرضهم.

في اليوم الثالث، وهو الأخير قبل مجيء جيل، تجولت في السلطان أحمد، مدينة استانبول القديمة. تبقى المدينة القديمة أحد أجمل الأمكنة على الأرض: ثمة الشوارع المرصوفة، قصر توب قابي المجيد، وقبل كل شيء آيا صوفيا والمسجد الأزرق المتقابلان عبر الحديقة الغنية، الخضراء.خلال رحلتي الأولى إلى استانبول كنت في عجلةٍ من أمري راغباً في البدء بإنجاز مهمتي فلم أر شيئاً من المدينة. أما الآن فكنت في فترة إجازة بين مهمتين، وكنت متوفراً على الكثير من الوقت.

تجولت في آيا صوفيا في ساعةٍ متأخرة من بعد الظهر، الحجم وحده أرهبني. غير أنني ما لبثت، مع اتضاح معالم الأجزاء الداخلية، أن لاحظت جمال الهندسة المعمارية: ثمة قبة مجيدة في الأعلى سابحة كما لو كانت بلا وزن فوق صف من الشبابيك المقنطرة. الأشعة الذهبية منسكبة في كل مكان.

لعله أجمل الجوامع التي سبق لي أن رأيتها. غير أنه كان كنيسة أيضاً، وذلك هو ما بهرني أكثر من كل شيء. فاللوحات الفسيفسائية الغنية لرسوم يسوع ومريم والقديس يوحنا بطريرك القسطنطينية صاحب الفم الذهبي كانت جميعاً لا تزال موجودة. كان المفروض ألا تكون: فتمثيل أي شكل إنساني يُعد كفراً وتجديفاً عند المسلمين. وعند استيلاء العثمانيين على القسطنطينية وقلب الكنيسة إلى جامع قاموا بتغطية اللوحات بطبقة من الجص. غير أن المعماريين العثمانيين دأبوا، بين الحين والآخر، عبر القرون المتعاقبة، على إزالة طبقة الجص، تنظيف اللوحات الفسيفسائية واستعادتها، فمعاودة تغطيتها من جديد.

كان العثمانيون قادرين على تدمير هذه اللوحات والصور، ولكنهم لم يفعلوا. فضلّوا إبقاءها نابضة بالحياة.

## التئام الشمل

انتظرت جيل ظهراً خارج محطة امينينو(*) للقطارات، تنفيذاً لطلبه. بعد بضع دقائق رأيته عن بعد. وكما هي عادته كان يدخن.

انطلق يمشي فتبعته، تماماً كما كنت قد فعلت مرات كثيرة من قبل. قادني أولاً مع القرن الذهبي ومن ثم انعطف وراح بتسلق المرتفع عبر أزقة مزدحمة بالباعة. عبرنا ممرات ضيقة وشوارع فارغة وأسواقاً مشبعة بروائح التوابل. مضى نصف ساعة، ثم نصف ساعة آخر. بالطبع كان هناك شخصٌ يتبعني. لم يكن ثمة ما يدعو جهاز الاستخبارات الخارجية (الفرنسي) (الدي جي اس إي DGSE) إلى الثقة بي بعد الذي حصل؛ كنت عائداً للتو من أفغانستان، ويجب أن يكونوا قد طرحوا تساؤلاً عن الجهة التي أقف في صفها.

أخيراً، توجَّهْنا نحو قلب المدينة القديمة. كنا قد مشينا نحو ساعتين كاملتين حين توقف جيل في النهاية في شارع مرصوف خلف آيا صوفيا. سرت صعوداً بجانبه.

سألني: 'هل تعتقد أن أحداً يتبعك؟' كان يبتسم، وحاجباه مقوسان.

ضحكت: 'لا، بالطبع لا.'

'هل أنت متأكد؟'

'مئة بالمئة.'

ثم تبادلنا الضحك وتصافحنا ورحنا نمشي جنباً إلى جنب.

---

(*) هذه المحطة معروفة باسم محطة السيركجي في تركيا.

مشينا ساعات طويلة بعد ظهر ذلك اليوم عبر المدينة القديمة وحديقة غولخانه إلى الماء فالعودة. رويت له قصة رحلتي البادئة صباح اليوم الذي وَدَّعْتُه فيه في حدائق دوله باخشته: الرجل الذي التقيته على الطائرة، إقامتي مع التبليغ، لقائي أبا أنس، ومن ثم بيشاور وخالدان وابن الشيخ وعبد الكريم وساروبي ودارونتا وغاز الخردل والسفارة المصرية وأبو زبيدة وأرقام الهواتف وجميع الخطوات التي كنت قد مررت بها لأتمكن من العودة إلى أوروبا.

كنت أنا المتكلم معظم الوقت. لم يُبْدِ جيل أي رد فعل على أي شيء مما أقوله، وبقي شبه عازف عن الكلام. غير أنه طلب مني أن أسير بخطوات أبطأ ثلاث مرات. كنت قد تدربت في الجبال الأفغانية، مما أبقاه شبه عاجز عن مسايرتي.

آخر المطاف، جلسنا في مقهى. قال جيل: 'لا حاجة لإخباري بأي شيء إضافي الآن. في غضون يومين سنلتقي أحد أصدقائي وسيطرح مزيداً من الأسئلة.'

ناولني مغلفاً سميكاً محشواً بالأوراق النقدية. تحدثنا لبضع دقائق أخرى ثم وقف ليغادر المكان. قال: 'هات جواز سفرك معك في المرة القادمة.' ثم اختفى في الشارع المزدحم.

بعد يومين، التقيت جيل في صالة استقبال أحد الفنادق الفخمة على الضفة الأخرى من القرن الذهبي، في حي التقسيم. أعطيته جواز سفري. وفيما نحن في المصعد قال لي: 'صديقي سيسألك بعض الأسئلة حول كيفية دخولك إلى الباكستان، حول من التقيتَهم، وحول ما فعلته وأنت في أفغانستان وحول أمور مشابهة. أرجو ألا تنزعج من الأسئلة، أو من طريقته في طرحها. فقط أجب على الأسئلة بوضوح وصدق، كما أعرف أنك ستفعل.' ابتسم ابتسامة خفيفة.

ثم قادني جيل إلى داخل جناح في وسطه طاولة كبيرة. بعد دقائق، وصل رجل أصلع، متوسط العمر. كان يحمل حقيبة جلدية ويرتدي معطفاً بيجاً، من ذلك النوع الذي يرتديه العملاء في أفلام الجاسوسية من الدرجة الثالثة. قبع (أصدر صوتاً كصوت الخنزير) متوجهاً نحونا نحن الاثنين محيياً، ثم ألقى بحقيبته على السرير وجلس.

'هات جواز سفرك!' هذه كانت أولى الكلمات التي تفوه بها. بادر جيل إلى تقديم جاوز السفر إليه. بدأت أفهم سبب تنبيهات جيل في المصعد.

'أريدك أن تخبرني بكل ما حدث. من لحظة نزولك من الطائرة في المطار الباكستاني إلى لحظة خروجك من الطائرة في مطار استانبول.'

كررت رواية القصة التي كنت قد سردتها على مسامع جيل قبل يومين، ولكن الرجل سألني حشداً هائلاً من الأسئلة في أثناء السرد. لم تكن الأسئلة أسئلة عما كنت قد رأيته أو عمن كنت التقيته أو عما كنت قد تعلمته في المعسكرات، بل أسئلة مجردة للتأكد من صحة روايتي. ما المدة التي استغرقتها رحلة السيارة إلى خالدان من الحدود؟ ما مواصفات مخيم اللاجئين في بيشاور؟ كم هو عمر أبي زبيدة؟

استطعت أن أستنتج من أسئلة الرجل أنه كان يعرف الكثير عن باكستان وقد سبق له أن أمضى وقتاً هناك. غير أنني استطعت أن أرى أيضاً أنه كان يحاول أن يوقعني في الفخ، أي فخ. من بداية المقابلة إلى نهايتها نشر جيشاً كاملاً من مختلف أنواع الأسئلة السخيفة والمثيرة للسخرية. إذن، أبو زبيدة هو أمير دارونتا؟ تقول إنك عبرت إلى الباكستان من كراتشي؟ إذن، خالدان قريبة من إسلام أباد؟

أخيراً طفح الكيل. سألت بصوت مرتفع: 'ما هذا الهراء العاهر؟' كنت هناك للحديث عن أمور بالغة الخطورة والجدية، عن مواقع وقنابل وخلايا نائمة. غير

أنهم لم يكونوا يريدون أن يسمعوا أي شيء عن مثل تلك الأمور. كانوا يظنون أنني كنت قد اصطنعت القصة كلها، ركَّبْتها من نسج الخيال.

أعلنت بصوت كالنباح: 'هذا تبديد لوقت الجميع. لماذا تحاول دفعي إلى قول أشياء نعرف كلانا، أنت وأنا، أنها غير صحيحة؟'

نهض جيل واقفاً بسرعة. قال:

'أظن أن هذا يكفي لهذا اليوم.'

فوجئ الأصلع، على ما بدا، ولكنه ما لبث أن لملم أشياءه، ارتدى معطفه، ورحل. ما إن انغلق الباب خلفه حتى التفت جيل إليّ مبتسماً ابتسامة مرتبكة، وقال: 'حَذَّرْتُك من احتمال أن يكون الأمر مزعجاً.'

سارت عملية الاستجواب على نحوٍ أفضل في اليوم التالي. كان الأصلع أكثر تهذيباً، لم يعد إلى طرح أي أسئلة مفخخة أخرى. بعد الانتهاء، قمنا، جيل وأنا، بجولة عبر المدينة. بدا قلقاً. مرة سأل: 'كيف ستقوم بإنجاز المهمة؟'

'إنجاز ماذا؟'

'تنفيذ ما أمرك به أبو زبيدة وابن الشيخ. أن تجترح لك مكاناً تحت شمس أوروبا. أن تؤلف خلية.'

فوجئت بالسؤال، على الرغم من وجوب عدم حصول ذلك باعتقادي.

قلت بحزم: 'بمساعدتكم، كما أفترض.'

'غير أن ذلك ليس، يا هذا، ما كانا يتوقعانه.' ثم راح جيل يشرح أن من شأن أي عضو خلية نائمة أن يكون ملزماً عادةً بحيازة جواز سفر مزور بطريقةٍ ما، أو بالحصول على جواز سفر رسمي من إحدى الدول الشبيهة ببلغاريا أو رومانيا.

رأيت المنحى الذي بدأ الحوار يتخذه فأوقفته حيث هو قائلاً: 'أنا لن أفعلها بتلك الطريقة' وأنا أحملق في وجهه. 'خاطرت بحياتي أكثر من مئة مرة هناك في أفغانستان. ما الذي يدعوني إلى المخاطرة معكم من جديد؟ ماذا إذا حصل خلل ما؟ ماذا إذا جرى اعتقالي؟ أكون قابعاً في زنزانتي مع جواز سفري البلغاري وتستطيعون أنتم أن تتظاهروا بأنكم لم يسبق لكم أن سمعتم بي قط.'

بقي جيل صامتاً. لم يكن قادراً على إنكار الحقيقة؛ كان قد حاول إرسالي إلى السجن مرة من قبل.

تابعت كلامي: 'عندما وافقت على هذا سألتني عن الثمن المقابل المطلوب لعملي. قلت لك إنني أريد أن يتولى جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) رعايتي. أعتقد أن الوقت قد حان الآن لتقوموا بذلك.'

بدا جيل محرجاً جداً أمام الموقف. من الواضح أنه لم يكن قد خطط لهذا. مضى ما يقرب من الدقيقة من الوقت قبل أن يتكلم. قال:

'لابد لي من الذهاب إلى باريس. سأعود في غضون أسبوعين.' ثم أعطاني رقماً هاتفياً جديداً وقال إن بوسعي الاتصال وترك رسالة إذا ما رغبت في التكلم معه.

حين عاد جيل، قال لي إنه كان قد تعين علي أن أذهب إلى داكار للحصول على جواز سفر فرنسي. لم يبين السبب. راح يفصّل معتذراً أن من المتعذر أن أطير إلى داكار عبر أوروبا، لعدم توفري على تأشيرة مرور (فيزا ترانزيت). ثم ناولني مغلفاً.

قال: 'ثمة في المغلف خمسة آلاف دولار. اذهب وابحث عن مكتب سفريات يؤمن لك سفراً إلى السنغال دون المرور بأوروبا. اتصل بي بعد تأمين ذلك، وسنلتقي ثانية.'

توصلت إلى قطع تذكرة سفر مضحكة؛ تبين أنه كان من شبه المستحيل الوصول إلى داكار دون المرور بأوروبا. تمثل البديل بأنه تعين علي أن أطير عبر دبي، نايروبي، وأبيجان. وفوق كل شيء، كانت الرحلة ستستغرق أكثر من أربعة أيام.

التقيت جيل ثانية في اليوم التالي في أحد المقاهي المطلة على البوسفور. أبلغني بأنه كان قد رتب لي لقاء مع أحد أصدقائه في داكار. كنت سأعطيه جواز سفري المغربي، فيزودني هو بجواز سفر فرنسي جديد بدلاً منه. أما نحن الاثنين، جيل وأنا، فكنا سنلتقي ثانية في باريس.

أصبحنا، كلانا، قادرين على الاسترخاء وأخذ نَفَس عميق بعد تمام اتخاذ جميع الترتيبات. تركنا المعسكرات وراءنا ورحنا نتحدث عن استانبول والسياح والمأكولات وهندسة العمارة بدلاً من المعسكرات.

غير أنه، لحظة انتهائنا من تناول الغداء، رفع رأسه ونظري إليّ وعلى وجهه تعبير بالغ الجدية. بدأ يقول: 'ليكن معلوماً لديك أن أحداً لم يصدق بأنك كنت ستعود. أما أنا فأكَّدْت لهم بأنك كنت ستفعل. التزمت بقطع يدي اليمنى إذا ما تلاشيت واختفيت - كنتُ على هذه الدرجة من الثقة بك. غير أنه خلال الأشهر القليلة الأخيرة كان أحدهم يبادر، كلما دخلتُ المكتب، إلى الاستهزاء بي طارحاً سؤال: "ألم تبتر يدك اليمنى بعد؟"'

أطلق جيل ضحكة خفيفة وهو يكمل القصة. ثم استعاد تعبيره الجاد، وقرّب وجهه من وجهي قائلاً: 'شكراً على عودتك!'

## باريس

قضيت مدة شهر في السنغال منتظراً جواز سفري. أخيراً ظهر رجل في فندقي وقدم نفسه صديقاً لجيل. أعطاني رزمة من الدولارات والفرنكات وجواز

سفر جديد. حين فتحته لأرى ما بداخله قرأت اسم 'أبو إمام المغربي.' كان ذلك هو الاسم المغربي الذي اعتمدته في المعسكر. أزعجني ذلك. كنت أعرف بالضبط مقصد جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) من هذا. كان الإخوان في الجهاز متأكدين من شبه استحالة السفر جواً بهذا الاسم بمبادرة مني دون معرفتهم، وذلك بالتحديد كان ما أرادوه. كانوا يريدون إبقائي تحت سيطرتهم.

التقيت جيل حين نزلتُ من الطائرة في مطار شارل ديغول. أخذني إلى نفس الفندق الذي كنت قد أقمت فيه بعد مغادرة بلجيكا. صعدنا إلى إحدى الغرف دون التوقف في مكتب الاستقبال، دخلنا الغرفة. ما إن أصبحنا داخل الغرفة حتى بادرتُ إلى سحب جواز السفر من جيبي وتسليمه إياه. قلت: 'إن الاسم ينم عن ذكاء. غير أنه سيتعين عليك أن تحصل على جواز جديد.'

كشّر جيل قليلاً وهو يأخذ جواز السفر قائلاً: 'كانت مَزْحَة.'

يا لها من حجة كسيحة! (عذر أقبح من ذنب). لم يكن الجهاز معروفاً بروح الدعابة تحديداً. غير أنني عضضت لساني.

ثم قال لي جيل إنني كنت سأقيم في باريس بضعة أسابيع إلى أن يتم اتخاذ الترتيبات اللازمة للشروع في مهمتي التالية. أوصاني بالاسترخاء والاستمتاع بمباهج المدينة.

قال: 'عليك أن تشتري معطفاً مطرياً' وهو يغادر.

سألت: 'لماذا؟' كنا في منتصف فصل الصيف.

'ثمة أمطار كثيرة حيث أنت ذاهب.' ثم رحل.

خلال الأسابيع التي أعقبت، تردد جيل على غرفتي الفندقية مرات كثيرة. سألني فيضاً من الأسئلة عن أفغانستان. تحدثنا عن التدريب. كان استثنائي

الاهتمام بالمتفجرات. أطلعته على كيفية تعلمنا صناعة عدد كبير من المتفجرات المتطورة من مواد بسيطة وعلى تعليمنا لأساليب نسف السيارات، القطارات، المباني، والطائرات. أطلعته على التجارب مع غاز الخردل والسيانيد.

غير أن جيل بقي متركزاً على الأوروبيين في المعسكر. أخبرته عن المغربي المقيم في لندن، ذلك الذي صار يستعمل الجي بي اس (GPS) بدلاً مني. وأخبرته بالطبع عن عبد الكريم. كان جيل شديد الاهتمام به، وسألني جميع أنواع الأسئلة. وصفت له عبد الكريم، وأفدته بأن الجماعة الإسلامية المسلحة هي التي كانت قد أرسلتْه إلى المعسكرات. حدثته عن أن الأخير كان قد تدرب معي على المتفجرات وكان عازماً على مغادرة المعسكرات في موعد غير بعيد.

سألني جيل: 'هل تعتقد أنه سيعود إلى فرنسا؟'

أجبته: 'أشك. قال لي إن البوليس كان دائباً على إزعاجه هنا.'

'هل سيقيم في أوروبا، أم سيذهب إلى مكان آخر؟'

'سيبقى في أوروبا. له ابنة هنا. قد يذهب إلى بلجيكا. أعلم أن له معارف هناك.'

عاد جيل إلى موضوع عبد الكريم مرات كثيرة.

قضيت معظم وقتي في باريس مستمتعاً بمباهج المدينة. صحيح أنني كنت في باريس من قبل، إلا أن هذه كانت المرة الأولى التي أكون فيها متوفراً على المال. تسلقت برج إيفل وشاهدت مختلف أنواع المتاحف وأمضيت سهراتي متنعماً بتناول الطعام في المطاعم الباهظة وباحتساء المشروبات الروحية في البارات الفاخرة. ثمة كانت فتيات جميلات في كل الأمكنة. وبعد عام كامل مع الرجال فقط، تذوقت نَكْهة كل واحدة منهن.

ومن ثم التقيت زَوْجي ذات عصر. بالطبع لم تكن زوجي آنذاك، إلا أنني عرفت أنها ستكون فور رؤيتي لها. كانت واقفة في قاعة استقبال الفندق مع أربع صديقات. جميعهن كن جميلات، وإن علقت عيناني بواحدة دون غيرها. كانت أهدأ من الأخريات، وأضأل. كانت ذات شعر أسود طويل وبشرة بيضاء. تذكرتُها مباشرة: كانت هي الفتاة التي كنت قد رأيتها في حلمي في جبل خالدان، حين طلبت من الله زوجاً وعائلة.

اقتربت من البنات وعاكستهن. بعد أن قلت لهن بأني كنت وحدي في باريس، لم يتأخرن في دعوتي إلى تناول العشاء معهن. في تلك الليلة ذهبنا جميعاً إلى أحد المطاعم المصفوفة على امتداد ضفة السين. الفتيات، جميعهن، كن فطنات وفاتنات - أو أقله اعتقدت أنهن كن كذلك. لا أستطيع أن أتذكر، بالفعل. كنت كامل التركيز على واحدة، على فاطمة، كل السهرة. كانت كثيرة الخجل؛ بالكاد نظرتْ إليّ. غير أنها في إحدى اللحظات أقدمت على إعطائي قطعة قريدس من طبقها ونظراتنا تقاطعت، وأدركت أنها كانت تبادلني الإحساس نفسه.

بعد العشاء طلبت منها أن نأخذ مشواراً معاً. أمضينا ساعات طويلة ونحن نتجول في المدينة في ظل الأجواء الصيفية الدافئة. أخبرتني عن حياتها بوصفها عربية مترعرعة في ألمانيا، وأطلعتها على حياتي بدوري. في إحدى المنعطفات سألتني عن عملي الذي كنت أكسب منه معاشي. توقفت عن السير وأمسكت برسغها لإيقافها أيضاً.

قلت: "لا أستطيع أن أبوح لك بكل شيء. كل ما أستطيع قوله لك هو أن هناك أناساً في العالم يريدون القيام بأعمال شنيعة جداً. وأنا أريد منعهم."

من نظراتها أدركت أنها ارتبكت. غير أنها لم تسأل أي أسئلة أخرى، وواصلنا المشوار. كنت شديد الرغبة في إقناع فاطمة بقضاء الليل معي. حاولت أن أقبّلها غير مرة، إلا أنها ظلت تبعدني. غير أنها لم تعد إلى غرفتها في الفندق

تاركة إياي وحدي في الوقت نفسه. أخيراً، فيما كانت الشمس دائبةً بمداعبة وجه المدينة، مكّنتني من تقبيلها لمرة واحدة.

'تتزوجينني؟' قلت وأنا أبتعد.

ابتسمت. لم تقل نعم، غير أنها لم تقل لا، أيضاً.

بعد ظهر ذلك اليوم زارتني فاطمة في غرفتي لوداعي. انتهت إجازتها وكانت عائدة إلى ألمانيا. ناولتّني ورقة عليها رقم هاتف وقالت إنه لإحدى صديقاتها. قالت إنها لم تكن تعرفني معرفة تكفي لجعلها تعطيني رقمها الخاص. تبادلنا قبلة ثانية، ثم ذهبت.

لم يكن لدي فائض من الوقت للتفكير بفاطمة، لأن جيل جاء في صباح اليوم التالي الباكر إلى الفندق. أعطاني جواز سفر وتذكرة هوية فرنسية باسم بابلو رودريغيز. أوضح أن من شأن السفر باسم إسباني أن يكون أسهل بكثير من السفر باسم عربي. وأنا أجيد التكلم بالإسبانية ـ تعلمتها عندما عملت دليلاً سياحياً في المغرب. أبلغني بأنني كنت سأغادر متوجهاً إلى لندن صباح اليوم التالي.

فوجئت. كنت على الدوام قد افترضت أنني كنت سأعمل في مكان ما من أمكنة القارة (الأوروبية). لم تكن إنجلترا تعني شيئاً بالنسبة إليّ. عندما كنت أتصور ما هو موجود إلى الشمال من فرنسا لم أكن أتخيل سوى الماء. وما كنت أعرفه عن لندن لم يكن يعجبني. كنت أتصور السخام والضباب وجاك السفّاح.

سألته: 'ولماذا لندن؟'

أجاب: 'هناك عدد كبير من الناس المهمين في لندن. نريد أن نعرف المزيد عنهم.' عندئذ أدركت ما عناه: كنت أتابع في الصحف أخباراً عن التشدد في ملاحقة عناصر الجماعة الإسلامية المسلحة في فرنسا غداة تفجيرات باريس. أعداد كبيرة منهم كانوا قد نزحوا إلى لندن.

سألني جيل: 'هل أنت خائف؟'

قلت: 'بالطبع لا.' ومع ذلك لم يخطر لي أن أتساءل عما كان يمكن أن ألقاه في لندن. كنت أعرف أن كلاً من حكيم، أمين وياسين كانوا في السجن. ولكن من الذي كانوا قد أطلعوه على ما جرى؟ متى كان سيتم إطلاق سراحهم؟

## لندن

غادرت باريس في اليوم التالي مع جيل. تظاهرنا بأن أحدنا لا يعرف الآخر. استقلينا الحافلة إلى كاليه، حيث عبرنا الجمارك. كانت المرة الأولى التي أسافر فيها بجواز سفر أوروبي وأدهشني الأمر: جعلني الموظف أمر بما لا يزيد إلا قليلاً عن نظرة خاطفة. تذكرت الإذلال الذي كنت أعاني منه وأنا أعبر الحدود بجواز سفر مغربي. كم من الوقت ستقيم؟ أين؟ هل أستطيع رؤية تذكرة العودة؟ ما معك من مال؟ بدا كما لو أنني كنت قد أصبحت شخصاً مختلفاً كلياً لمجرد توفري على جواز سفر أوروبي.

سافرنا باليوروستار إلى دوفر، ثم استقلينا حافلة أوصلتنا إلى لندن. كان جيل جالساً بجانبي كل الوقت. حين نزلنا من الحافلة في محطة فكتوريا أعطاني جيل بطاقة تأكيد الحجز في أحد فنادق وست كنزنغتون. قال لي إنني كنت سأقيم هناك لبعض الوقت. قال إن علي أن أتصل به صباح اليوم التالي لاتخاذ ترتيبات لقائنا التالي. ثم اختفى في البحر البشري.

أدركت عندئذ أن جيل كان قد سافر معي الطريق كلها من باريس لمجرد الاطمئنان إلى عدم اختفائي. لم أكن، آخر المطاف، إلا إرهابياً محترفاً، وتعين عليه أن يبقيني تحت المراقبة. أما وقد أصبحت في لندن فقد كانت ثمة عيون كثيرة في الأجهزة السرية البريطانية لرصد كل حركة من حركاتي.

ذهبت إلى الفندق ومناوبة الاستقبال دلتني على غرفتي. تركت حوائجي على السرير وخرجت لاستكشاف المدينة.

لم تكن لندن شبيهة بتلك التي كنت قد تصورتها. كانت أنظف بكثير من باريس - غير ملوثة بالسخام على الإطلاق، كما كنت قد توقعت. قمت بجولة في الحافلة ذات الطابقين وعلى الفور عشقت هندسة العمارة الفكتورية. لم يكن ثمة أي ناطحات سحاب في ذلك الجزء من المدينة، وبالتالي فإن جميع الأشياء كانت متناسبة.

غير أن ما فاق كل شيء في إثارة دهشتي هو البوليس. حين نزلت من الحافلة لم أستطع تمييز المكان الذي كنت فيه. رحت أعاين خارطتي، وحين رفعت رأسي رأيت شرطياً مقبلاً. توتر جسدي غريزياً، غير أن الشرطي ما لبث أن سأل عما إذا كان يستطيع مساعدتي في الاهتداء إلى طريقي. بعد أعوام من محاولة الهرب من البوليس في المغرب، ومؤخراً في الباكستان، أذهلني هذا اللطف.

جيل وأنا التقينا في اليوم التالي في فندق فاخر قريب من غرين بارك. استقبلني في مكتب الاستقبال. كانت الأجهزة البريطانية تتبعني منذ وصولي إلى لندن - كنت متأكداً من ذلك - وبالتالي لم يكن ثمة ما يدعو إلى تكرار لعبة القط والفأر المألوفة.

قادني جيل إلى غرفة اجتماعات. أوصاني بعدم المبادرة الآن إلى الذهاب إلى الجوامع أو إلى السعي لإقامة علاقات. كان ينبغي أن أوظف الأسبوعين التاليين لمعرفة المدينة. سألته عن الطريقة فأفاد بأنه كان يتعين علي أن أظهر وأتصرف كما لو كنت واحداً من المهاجرين تماماً. أوضح أن من المهم بالنسبة إليّ الشروع في بناء غطاء مناسب لي. طلب مني أن أتصل خلال أسبوع إثباتاً للوجود (تفقد).

خلال ذلك اللقاء، طلبتُ من جيل شيئاً واحداً فقط: أشرطة تسجيل القرآن. بدأت أشعر بالانزلاق بعيداً عن لغة القرآن وإيقاعاتها. توقفتُ عن الذهاب إلى

الجامع أو التحدث مع أناس يعرفون لغة القرآن مثل الإخوان في المعسكرات. غير أنني كنت أعرف أنه مطلوب مني أن أحتفظ بها ـ باللغة القرآنية ـ على رأس لساني إذا ما كنت راغباً في إقناع الإخوة المسلمين في لندن بصدقي.

امتثلتُ لنصيحة جيل. قضيت الأسبوعين التاليين عاكفاً على التعرف على لندن. خلال النهار كنت أتجول في المدينة أو أتردد على المتاحف، وفي الأماسي كنت أغير على البارات ودور السينما القريبة من لستر سكوير. عشقت حيوية لندن والأنوار الساطعة والناس ذوي هذا العدد الكبير من الألوان.

اتصلت مع جيل بعد الأسبوع الأول، وحين عاود الاتصال طلب مني الذهاب إلى المحطة في اليوم التالي للذهاب بالقطار إلى مطار ستانسند. زودني باسم أحد الفنادق القريبة وطلب مني لقاءه هناك في مكتب الاستقبال.

استغرقتْ الطريق إلى ستانسند نحو ساعة من الوقت. وفيما كنت متوجهاً نحو نقطة اللقاء، رفعت رأسي فرأيت شخصاً واقفاً خلف واجهة زجاجية. كان مشغولاً بتوجيه عدسة آلة التصوير نحوي.

انتظرت جيل في بهو الانتظار. وفيما كنت جالساً هناك، رأيت رجلاً معلقاً آلة تصوير كبيرة حول رقبته خارجاً من خلف الواجهة. صعقني الافتقار إلى الحصافة والدقة.

لم يزد الأمر إلا سوءاً حين وصل جيل واصطحبني إلى الطابق العلوي. بصعوبة منعت نفسي من الضحك حين دخلت الغرفة. كانت مغطاة كلياً بالمرايا. غير أني لم أقل شيئاً. فتح جيل حقيبته وأخرج منها علبة.

ناشراً ابتسامة على وجهه قال: 'شكراً على مجيئك إلى هنا. أردت إيصال هذه إليك.' ناولني العلبة فنظرت إلى ما بداخلها: أشرطة تسجيل القرآن التي كنت قد طلبتها.

ثم عقد جيل حاجبيه وقال: 'آسف. نسيت شيئاً. سأعود في دقيقة.'

خرج جيل من الغرفة، وأنا عاينت المكان. الشيء الأول الذي رأيته تمثل بمحفظة نقود جيل. كانت مرمية مفتوحة فوق الحقيبة. كانت محشوة بكمية كبيرة جداً من الأوراق النقدية إلى درجة أن أعداداً من ذوات الخمسين جنيهاً كانت بادية.

تملّكني الغضب. هل كان البريطانيون يعتقدون حقاً بأن مستوى غبائي كان كافياً لجعلي أسرق من جيل؟ كنتُ واثقاً من أن جيل لم يكن من النوع الذي يمكن أن يبادر إلى اعتماد مثل هذه الخطة المثيرة للسخرية، غير أنني انزعجت منه أيضاً لأنه تواطأ معها.

ابتسمتُ للمرايا على كل من الجدران ثم ذهبت إلى الحمام. جلست على المقعد وأفرغت ما في جوفي تاركاً الباب مشرعاً لضمان حصولهم على الصورة عبر آلة التصوير المنصوبة.

حين عاد جيل إلى الغرفة، لم يحاول حتى أن يتظاهر بأن اجتماعنا كان له هدف آخر. كان الموقف محرجاً، فقررت كسر جليد الصمت.

قلت: 'شكراً جزيلاً على الأشرطة. ولكنني سأكون، كما تعلم، بحاجة إلى آلة تسجيل ستيريو للاستماع إليها.'

ثم نظرت إلى جيل بتكشيرة كبيرة ذات معنى: 'أنا متأكد من أنك قادر على تزويدي بواحدة' قلت مع شيء من الدعابة اللطيفة في صوتي: 'أعني، لا تبدو مفتقراً إلى المال اللازم.'

## دانييل

في الأسبوع التالي، قابلت جيل في فندق آخر قريب من غرين بارك. حين دخلت الغرفة، أبلغني بأن أحد أصدقائه البريطانيين كان سيلحق بنا. بعد بضع

دقائق اقتحم الغرفة رجل طويل القامة في الثلاثينيات من العمر. ألقى بحقيبته على الأريكة ثم شهر يديه نحوي قائلاً:

'اسمي دانييل. أنا مع أجهزة الاستخبارات البريطانية. سأكون مسؤولاً عنك خلال فترة وجودك في إنجلترا.' تصافحنا، وجلس إلى الطاولة.

مباشرة كرهت دانييل. كرهت طريقته في قذف الحقيبة، أسلوبه في الكلام، منهجه في الإعلان عن أنه كان سيتولى 'المسؤولية' عني كما لو كنت أحد حيوانات السيرك. نظرت إلى جيل فرد بابتسامة متعاطفة. ثم جلسنا.

'إذن أنت تزعم أنك كنت في أفغانستان، أليس كذلك؟' كانت السخرية واضحة على وجهه. ثم ما لبث الموقف أن اكتسب معنى: كان دائباً على مراقبتي منذ أسبوعين، أو أقله، على الإصغاء إلى ما قاله من كانوا يفعلون ذلك. عرف أني كنت مستغرقاً في بحر اللهو مُكْثراً من الرقص والشرب والتدخين. كان الأخ قد تصور شخصاً مختلفاً حين كُلِّف بالعمل معي، وقد خاب أمله.

أجبته: 'ما سبب وجودي هنا باعتقادك؟'

مثبتاً نظره علي قال: 'حسناً. الآن سأطرح عليك بعض الأسئلة.'

بلغ الغضب أوجه، فتحت فمي لأقول شيئاً.

قبل أن أتمكن من الكلام قاطعني دانييل قائلاً: 'لا. أنا هو من سيطرح الأسئلة. أما أنت فلست في وضع من يسألني عن أي شيء.'

نظرت إلى جيل. كان يمعن النظر في أظافر يديه. قلت لدانييل 'اسمع يا أنت. لَسْتُ على ما يرام. بالفعل أنا مريض. لابد لي من مراجعة الطبيب.' لم أكن مستعداً لتمكين هذا الوغد من التحكم بالحوار.

بدا مندهشاً، مرتبكاً. سألته: 'كيف أهتدي إلى طبيب في لندن؟'

تمتم متلعثماً: 'أفترض أنك تستطيع الذهاب إلى طبيب عام.'

'أنا لستُ مواطناً بريطانياً.'

'حسناً، أعتقد أنه يكفي أن تقدم عنوانك وتثبت أنك مقيم.'

'غير أني لست مقيماً في شقة بعد. سيتعين عليك أن تساعدني. هل عندك طبيب؟ تستطيع أن تدلني على عيادة طبيبك، أليس كذلك؟'

بدا دانييل مخبَّلاً تماماً الآن. حاول أن يحدد لي اتجاهات معينة في البداية: يمين، ثم يسار، ثم إشارات ضوئية، وما إلى ذلك. غير أنني تظاهرت بالتشوش والارتباك فتوقف عن الوصف وراح يرسم خارطة لي. وفيما كان هو متركزاً على الخارطة، رمقت جيل بنظرة خاطفة. كان لا يزال ممعناً النظر في أظافر يديه، إلا أنني استطعت رؤية ابتسامته الخفيفة.

خرجت من ذلك الاجتماع فور انتهاء دانييل من رسم الخارطة. لم يكن الاجتماع التالي، بعد أسبوع، أفضل حالاً. جيل وأنا اجتمعنا في فندق جديد في الحي نفسه. حين دخل دانييل وضع حقيبته على الأرض بدلاً من قذفها. ولكن موقفه، باستثناء ذلك، لم يكن قد تغير.

جلس ووضع النظارات على عينيه. قال: 'أريدك أن تحدثني عن جميع الأمكنة التي كنت فيها وسائر الأشياء التي فعلتها منذ رؤيتي لك قبل أسبوع.'

غَطْرَسَتُه استفَزَّتني. سألته: 'ما الذي تعنيه بـ "سائر الأشياء"؟ ساخراً.' 'هل تريدني أن أحدثك عن كل شيء أكلتُه؟ عن كل مطعم كنت فيه؟ عن كل فتاة قبّلتها؟ أو ربما كانوا غلماناً؟ عن الوقت الذي قضيته في المراقص ودور السينما والبارات؟ تريد أن تعرف كل شيء؟'

مال دانييل إلى الخلف وأومأ قائلاً: 'نعم، ذلك بالتحديد ما أريد معرفته.'

'وأنا لن أخبرك بشيء من ذلك. إذا كانت هذه هي الشروط فلن أعمل عندك. أنت لا تملكني.'

كانت فترة صمت طويلة بعد ذلك. بقي جيل محجماً عن الكلام؛ من الواضح أنه كان محرجاً أيضاً. لم يكن يبادر إلى التدخل لتدوير الزوايا كعادته. كان في إنجلترا الآن، تعين عليه أن يصمد أمام هذه المهزلة مثلي تماماً.

كانت نبرة دانييل أكثر هدوءاً حين رد قائلاً: 'نحن نريد معرفة هذه الأشياء من أجل أمنك.'

طفح الكيل. انفجرت: 'يا للهراء! هل كنتم تتولون ضمان أمني عندما كنت في أفغانستان أفكك الصواعق وأعطل الألغام؟ هل كنتم تتولون ضمان أمني على كل حاجز في الباكستان، حيث كانت الشرطة تعتقل كل عربي منحوس يصادفونه؟ أين كنتم آنذاك؟'

عينا دانييل جحظتا، وفمه بات مقفلاً.

تابعت بعنفوان: 'دعك من هذا الهراء السخيف عن الأمن. أنا سأتولى الاهتمام بأمني الخاص. وسأحتفظ بحياتي الخاصة لنفسي.'

في لقائنا الثالث لم تكن وقاحة دانييل قد تضاءلت إلا قليلاً. جئت إلى الاجتماع منزعجاً لأنني كنت مشغولاً بالبحث عن شقة دون نجاح، لم أكن قد عثرت على واحدة. طلبت من جيل ودانييل أن يساعداني ولكنهما اعتذرا. كان من المهم أن أعثر على الشقة وحدي، تماماً مثل أي شخص عادي آخر. كان لابد لي من تأمين غطاء لي.

ثم دس دانييل يده في حقيبته وسحب مغلفاً مملوءاً بالصور ورماه على الطاولة. قام بنشر الصور وطلب مني أن أدله على من عرفته من أصحابها.

نظرت، رأيتهم: أمي، حكيم، أمين، ياسين، طارق. كان قد مضى عام ونصف العام منذ أن غادرت بلجيكا، وها أنا ذا كنت أعاين الصور ذاتها.

فيما كنت أشير إلى مَنْ عرفتهم، نظرت إلى جيل. كان يحملق وهو ينظر إلى الطاولة بإمعان. استطعت أن أقرأ من نبضات عروق جبهته أنه كان حانقاً. أدركت أن الممارسة كانت مخيبة له أيضاً. لم تكن الأجهزة البريطانية واثقة بالفرنسيين؛ كانت مصرة على الاستمرار في اختباري لاكتشاف حقيقتي. كان الموقف مهيناً لكلينا.

بعد إزاحة الصور بدأ دانييل يخبرني بطلبات الأجهزة البريطانية مني. قال: 'ثمة أشخاص نريدك أن تعرف المزيد عنهم. إنهم إسلاميون متطرفون. نريدك أن تهتدي إليهم في الجوامع والمساجد أو غرف الصلاة هنا في لندن.'

ذلك ما كنت أتوقعه. قلت: 'مفهوم. لماذا لا تزودونني بقائمة جوامعكم التي يتعين علي أن أبدأ منها؟'

هز دانييل برأسه: 'لا. لا أستطيع أن أفعل ذلك. عليك أن تكتشفها بنفسك. لا تستطيع أن تزورها كما لو كنت مجرد سائح.'

سألت: 'ولكن كيف يفترض فيَّ أنا أن أعرف أين أبحث؟ لم يمضِ على وجودي هنا سوى شهر واحد.'

'ذلك، تحديداً، هو بيت القصيد. عليك أن تتعلم وحدك، ذاتياً. لابد لك من الشروع في تمضية فترات زمنية أطول مع العرب الآخرين.' صحيح أن دانييل لم يكمل، غير أن وجهه كان يشي بالجملة التالية التي كانت محتملة بكل تأكيد. 'توقف عن إضاعة الوقت مع البنات في المقاهي.'

ثم أعطاني دانييل رقم هاتف، وقال: 'يمكنك استخدام هذا الرقم للاتصال بنا نحن الاثنين: جيل وأنا. هذا هو الرقم الوحيد الذي يجب عليك أن تستعمله خلال وجودك في إنجلترا.'

نظرت إلى جيل وسألته: 'وماذا عن رقم هاتفك أنت؟'

بقي جيل صامتاً بضع ثوانٍ. بدا شديد الحزن. وحين تكلم أخيراً اتضح أنه كان يختار كلماته بعناية. قال: تستطيع أن تستعمل رقم هاتفي إذا كانت لديك أي مسألة شخصية تخصني. أما فيما يخص عملك هنا، فستكون ملزماً بالاتصال مع دانييل.'

## أبو قتادة

يوم الجمعة التالي ذهبت إلى جامع ريجنتس بارك لأداء صلاة الجمعة. في الداخل كانت ثمة سلسلة واجهات لجميع أنواع العروض التي تلقي الضوء على تاريخ الجامع. كانت وزارة حربية تشيرتشل قد اشترت الموقع في 1940 تعبيراً عن الشكر لمسلمي الهند الذين قضوا دفاعاً عن الإمبراطورية البريطانية. كان من الواضح تماماً أن هذا لم يكن المكان الذي يمكن العثور فيه على أي إسلاميين متطرفين.

كان الجامع كبيراً. في الداخل، كانت الأرض مفروشة بالسجاد الفاخر، وثمة كانت ثريا عملاقة متدلية من السقف. جلست فيما تدفق سيل المصلين على القاعة، ثم استمعوا إلى الإمام الذي تحدث عن أهمية التحلّي بالاستقامة وحب عمل الخير. لم يكن الكلام خطاباً متطرفاً.

في نهاية المحاضرة، ذكّرنا الإمام بثالث أركان الإسلام، الزكاة وهو التبرع الإلزامي. حَضَّنا على التبرع بسخاء للفقراء ونحن خارجون. في كل جامع في كل بلد في العالم لابد للإمام من أن يتحدث عن الزكاة. غير أن أي إمام متطرف لن يدعو إلى إعطاء الفقراء. سيطلب من جمهوره أن يتبرعوا بالمال لصالح المجاهدين على جبهات القتال كما لصالح الأرامل والأيتام الذين يتركونهم وراءهم.

بعد المحاضرة، أديت الصلاة ومشيت نحو الباب. ثمة كان جامع زكاة واقفاً خلف طاولة جميع ألوان النشرات الإخبارية الرسمية. مررت بالقرب منه وخرجت إلى أمام الجامع. كنت أعرف ما كنت أبحث عنه. في كل جامع بأوروبا، بعد صلاة الجمعة، لابد من وجود رجال واقفين أمام الجامع لبيع نشرات سياسية عائدة لهذه الجماعة أو تلك. على الفور اهتديت إلى الرجل الذي كان يبيع نشرة الأنصار ودسست عشرين جنيهاً في صندوق تبرعاته. استطعت أن ألاحظ أنني لفتُّ نظره، غير أنه لم يقل شيئاً.

قرأت النشرة أمام الجامع. خاتم الجماعة الإسلامية المسلحة لم يكن هو ذلك الذي كان طارق يستخدمه في بروكسل، فيما عدا ذلك كانت النشرة هي هي إلى حدٍّ كبير. كانت ثمة مواد احتفالية مشيدة بالهجمات على القرى، الأرتال العسكرية، ومخافر الشرطة، جنباً إلى جنب مع بيانات إحصائية عن عدد الجنود الذين قتلهم الجهاد وكميات الأسلحة والذخائر التي تم الاستيلاء عليها من قبله. ونحو خواتيم النشرة كانت سلسلة من التقارير عن المعارك الجهادية في كل من فلسطين، بلاد الشيشان، وكشمير. إلا أن الجزء الأهم ورد، بنظري، على الصفحة الأخيرة بالذات. كانت هناك دعوة لحضور ندوة يوم الأحد القادم. كان شيخٌ يدعى أبو قتادة سيلقي محاضرة.

إذا كانت الأنصار مؤيدة لهذا الشيخ، فإن من شأن الأخير أن يكون بالضرورة، فيما كنت أعلم، على علاقة بالجماعة الإسلامية المسلحة. كان من شأن أبي قتادة أن يفتح لي الطريق.

التقيت جيل ودانييل لاحقاً بعد ظهر ذلك اليوم؛ دائماً كنا نجتمع يوم الجمعة. حين عرضت عليهما نسخة الأنصار، كان الرجلان، كلاهما، سعيدين، على ما بدا.

قلت لهما: 'سأحضر الندوة. أعتقد أنها ستكون طريقة مناسبة لتمكيني من الشروع في إقامة الجسور.'

تدخل دانييل: 'نعم يجب أن تذهب. ولكن ابق متواضعاً. أريد أن يراك الناس هناك، ولكن حذار التحدث مع أي كان بعد.'

عُقِدَت الندوة في باحة إحدى المدارس. حين دخلت كان هناك نحو خمسين رجلاً ممن سبقوني جالسين على الكراسي المقابلة للمنصة في الصدر. جلهم كانوا حليقي الذقون وفي ملابس غربية. كانت الندوة قد بدأت وكان ثمة ثلاثة رجال أمام الغرفة يتبادلون الكلام باللغة العربية.

لم يكن قد سبق لي أن رأيت صورة أبي قتادة من قبل، إلا أنني عرفته مباشرة. كان محاطاً بنوع من الهالة؛ من الواضح أنه كان هو المسؤول عن إدارة الحوار. كان في ثلاثينياته، إلا أنه كان أكرش من الآن. كان في زي يشبه الزي الأفغاني، على الرغم من أنه لم يكن أفغانياً. لم تكن الملابس إلا نوعاً من البيان السياسي. كان يستعرض ولاءه لأرض الجهاد.

مع إصغائي إلى كلام أبي قتادة، اتضح لي أنه ذكي جداً، واسع الاطلاع. لم أستطع استيعاب كل شيء باللغة العربية، إلا أنه كان يقود الحوار حول صحة بعض الأحاديث (النبوية). الآخران كانا يساهمان بين الحين والآخر، وكان أفراد من الجمهور يطرحون أسئلة أيضاً. وقد استطعت أن أميز من لهجتهم أنهم كانوا مغاربة وجزائريين بأكثريتهم، على الرغم من وجود بعض الباكستانيين أيضاً. كانت المناقشات بحثية (أكاديمية) خالصة على نحوٍ صارم. لعل الشيء الوحيد الذي جعل الندوة تخريبية هو كونها معلنة في نشرة الأنصار.

بعد انتهاء الندوة، وقف أبو قتادة وأورد حديثاً شريفاً قائلاً ما معناه: 'حسب رواية أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (عليه السلام) أنه قال: إن الله (جل

وعلا) قال: أنفق (تصدق) يا ابن آدم، فسأنفق أنا (سأتصدق أنا) عليك.' ثم ختم أبو قتادة الندوة قائلاً: 'أرجو أن تتبرعوا قدر استطاعتكم للمجاهدين، كما لأسرهم وأراملهم وأيتامهم الذين تركوهم وراءهم.'

دسست خمسين جنيهاً في صندوق التبرعات عند الخروج، وحملت نسخة من النشرة الإعلامية عن طاولة قريبة من الباب. في النشرة كانت ثمة دعوة إلى حلقة مناقشة مع أبي قتادة وثلاثة من رجال الدين لموضوع الجهاد. كانت الحلقة ستتم مساء الخميس من الأسبوع نفسه في مكان يعرف باسم مركز الريشات الأربع للشباب.

## الرِّيَش الأربع

بعد بضعة أسابيع وُفِّقت أخيراً بالعثور على شقة. كان الأمر قد استغرق عدداً من الأسابيع. درجت على استعراض الإعلانات في الصحف كل يوم أحد، غير أن الأرقام التي كنت أتصل بها كانت دوماً تشي بأن الشقق باتت مؤجرة. في نهاية المطاف، وجدت إعلاناً في لوحة للإعلانات خارج إحدى محطات المترو، هو الإعلان الذي قادني إلى الشقة التي أعيش فيها الآن في كنسال غرين، في منزل تعود ملكيته إلى سائق تكسي برتغالي.

في تلك الجمعة ركبت قطار خط بيكرلو من كنسال غرين إلى ماريلبون. تبعت الأسهم المرسومة على إحدى صفحات النشرة الإعلامية ومشيت باتجاه ريجنتس بارك. رأيت رجلاً يتقدمني بخطوات قليلة في زي أفغاني. لحقته وعرضت عليه النشرة قائلاً: 'السلام عليكم أيها الأخ، هل تستطيع أن تدلني على هذا العنوان؟'

'عليكم السلام يا أخ. أنا أيضاً ذاهب إلى هناك.' تكلم بالإنجليزية بلكنة أفغانية قوية.

قادني إلى مبنى آجري كبير في جادة روسمور ودخلنا. كان هناك ما لا يقل عن 150 رجلاً متربعين على بُسُط الصلاة المفروشة فوق أرض ملعب لكرة السلة. دلني الأفغاني على سُلَّم فنزلت لأتوضأ وحين عدت انضممت إلى الرجال الآخرين في الملعب.

عاينت الوجوه من حولي جُلّهم من شمال أفريقيا. ورأيت أيضاً بضعة هنود وباكستانيين مع حفنة من الزنوج. أكثر الرجال كانوا يرتدون ملابس عادية، غير أنني لاحظت عدداً في جلابيب كما في أزياء أفغانية مؤلفة من السروال والقميص. إلا أن عدداً كبيراً من مرتدي الزي الأفغاني كانوا من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، لا من أفغانستان.

كان هناك ثلاثة رجال على منصة منصوبة في صدر الغرفة، وكان ثمة آلة تصوير فيديو مركبة في مواجهتهم. أحد الرجال كان أبا قتادة، وآخر كان أحد رَجُلَيْ الدين اللذين كانا معه في الندوة في وقت سابق من الأسبوع. أما الثالث فلم أتعرف عليه.

أومأ أبو قتادة إلى الجمهور فجلس الجميع بهدوء وسكون. "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. باسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم."

كان صوت أبي قتادة صافياً وعميقاً وهو يتلو الصلاة أو الدعاء. الحمد والشكر كله لله والسلام والبركات على رسوله.

ثم بدأ أبو قتادة يتكلم عن واجبات الجهاد. قال إذا وقعت ولو امرأة (مسلمة) واحدة رهينة بأيدي الكفار، فإن من واجب ومسؤولية كل مسلم في طول العالم وعرضه أن يجاهد في سبيل تحريرها. ثم تابع يورد قائمة مستويات الجهاد المختلفة: جهاد القلب، جهاد اللسان، جهاد المعرفة، جهاد اليد، وجهاد

السيف. وقد بين بوضوح أن الجهاد المسلح كان الأشرف والأنبل بين سائر أشكال الجهاد. فوجئت باللغة التي كان أبو قتادة يستخدمها. كانت شبه مطابقة لتلك التي كنت قد سمعتها في المعسكرات. للحظة خاطفة عدت بالذاكرة إلى مسجد خالدان. وحين عدت إلى الانتباه، كان أبو قتادة قد انتقل إلى التمييز المألوف بين الجهاد الدفاعي أو الإلزامي من ناحية والجهاد الهجومي من ناحيةٍ ثانية.

ثم راح أبو قتادة يتحدث عن الجزائر، فلاحظت أن الجمهور الذي بقي صامتاً حتى هذه النقطة بدأ يصدر أصواتاً. بعضهم كانوا يتهامسون. وما إن فتح أبو قتادة باب تلقي الأسئلة للمناقشة حتى بادر عدد غير قليل من الرجال إلى رفع أيديهم. طرحوا أسئلة صريحة ومباشرة جداً. هل الجهاد في الجزائر جهاد إلزامي، فرض؟ هل المسلمون الذي لا يقفون في صف الجماعة الإسلامية المسلحة هم مسلمون أساساً؟

رد أبو قتادة على أكثرية الأسئلة بنفسه، غير أنه حرص على إعطاء الكلام، بين الحين والآخر، للرجل الجالس بجانبه، ذلك الذي كان في الندوة الأولى. وقد قدمه أبو قتادة باسم أبو الوليد. على النقيض من أبي قتادة. كان أبو الوليد ناحلاً جداً. وقد بدا أصغر قليلاً في السن من أبي قتادة وذا ملامح عربية واضحة.

أصغيت باهتمام إلى صوته حين قدم أجوبة إلى الأسئلة. وعلى نحوٍ مباغت تذكرت: كان أبو الوليد هذا في المعسكرات. حتى حين صار الجمهور من حوله أكثر انفعالاً، بقي صوته هادئاً، موزوناً. ثم عاينت أبا قتادة من جديد لأرى ما إذا كنت قد غفلت عن هذا في انطباعي الأول. مزاجه كان مختلفاً. كان لصوته هامش أوسع للحركة، وكان وجهه مفرط النعُومة. من المؤكد أن أبا قتادة لم يسبق له أن كان مجاهداً على الإطلاق.

التقيت جيل ودانييل في اليوم التالي، وأطلعتهما على ما جرى في المناسبتين اللتين رأيت فيهما أبا قتادة. قلت لهما إن هناك متطرفين في مركز الرِّيَش الأربع للشباب وإن أبا الوليد كان قد سبق له أن تدرب في المعسكرات. أبلغتُهما بأن الحوار كله قبل يومين دار حول الجماعة الإسلامية المسلحة.

بدا الرجلان راضيين عن عملي. كرر دانييل ما كان قد قاله في لقائنا السابق، مؤكداً ضرورة عدم بروزي الآن.

غير أن دانييل هذا لم يطرح علي عن الاجتماع سوى سؤال واحد: 'هل قالوا شيئاً عن مهاجمة إنجلترا؟'

## المال

ذهبت مرة أخرى إلى الرِّيَش الأربع في اليوم التالي لأداء صلاة الجمعة، وكررت الذهاب جمعة بعد جمعة بعد ذلك. ثمة كانت محاضرات ونقاشات في أماسي أخرى خلال الأسبوع وكثيراً ما كنت أحضرها أيضاً. على الدوام كان أبو قتادة يقدم عروضاً تنم عن اطلاع واسع جداً. كان يتحدث عن اللاهوت وقد بدا واضحاً أنه مطلع على جوانب كثيرة من الإسلام. لم تكن المحاضرات سهلة. كان أبو قتادة كثير التطلب من الجمهور.

كان أبو الوليد يجلس بجانب أبي قتادة معظم الوقت، ويتلو خطبة الجمعة في غياب أبي قتادة. أحياناً، حين كنت أتخلف بعد الصلاة للمساعدة على إعادة ترتيب سجادات الصلاة، كنت أرى أبا قتادة وأبا الوليد يعدّان الأموال المتراكمة في صندوق التبرعات. وبعد الانتهاء كان أبو الوليد يحزم الأوراق النقدية ويأخذ الرزمة معه.

درستُ الرجال الذين كانوا يترددون على الرِّيَش الأربع بعناية فائقة جداً. بعضهم كانوا من صغار السن، غير أن هناك كان أيضاً أعداد غير ضئيلة ممن

هم في الثلاثينيات والأربعينيات. بدوا متعلمين؛ كانوا مطلعين على القرآن جيداً وكانوا يصغون إلى الخطب والمواعظ باهتمام. من الواضح أن أبا قتادة كان يتكلم لغة مفهومة بالنسبة إليهم.

تبين لي وجود عدد من المتطرفين في الرِّيَش الأربع. لاحظت جميع الأشياء التي كان حكيم قد لقنني عنها في المغرب قبل سنوات: طريقة هؤلاء الرجال في التحريك الدائم لشفاههم، الصلاة الصامتة، طريقتهم في أداء الصلاة، أسلوبهم في تثبيت أنظارهم على الأرض أمامهم، سراويلهم التي كانت تبقى دائماً فوق الكاحل.

ولدى عدد قليل جداً منهم لاحظت شيئاً آخر أيضاً: مِشْيَتَهم. كانت المشية الخفيفة التي سبق لي أن رأيتها في المعسكرات ذاتها. وحين درست هؤلاء الرجال بقدرٍ أكبر من التدقيق، لاحظت أشياء أخرى أيضاً ـ الأصوات الهادئة، العيون الفولاذية الثابتة، الدوائر الداكنة تحتها.

كل يوم جمعة، بعد انتهاء الصلاة، كنت ألتقي دانييل وجيل وكانا يسألانني عن الرِّيَش الأربع. قام دانييل بطرح الأسئلة ذاتها عدداً من المرات: هل يقوم أبو قتادة بتحريض الناس على الجهاد داخل إنجلترا؟ هل يشجع أتباعه على مهاجمة الأراضي الأمريكية أو البريطانية؟

أراد دانييل وجيل معرفة ما إذا كنتُ قد سمعت اسم أبي قتادة في أفغانستان، وأفدتهما بأنني لم أفعل. أرادا أن يعرفا ما إذا كنت مقتنعاً بأن أبا قتادة كان عاكفاً على تجنيد أشخاص لإرسالهم إلى المعسكرات. قلت لهما: 'لا أعلم، غير أن من الواضح أن هناك رجالاً في الرِّيَش الأربع سبق لهم أن كانوا في معسكرات التدريب.' وقد ذكّرتهما بأن أبا قتادة دأب على تكرار حقيقة أن حياة الجهاد هي الرسالة الأسمى والأنبل بالنسبة إلى أي مسلم.

ذات يوم أعطاني دانييل هاتفاً خليوياً، قائلاً وهو يقدمها: 'إياك أن تضيّع هذا.'

'اطمئن. لن أضيعه.'

بقي دانييل ممسكاً بالهاتف وتابع يقول: 'أعني ما أقوله. عليك أن تكون شديد الحرص على هذا. حذار نسيانه في أي مكان! تيقَّن من وجوده معك كل الوقت، مفهوم؟'

'مفهوم.' مددت يدي لأخذ الهاتف ولكنه لم يكن مستعداً لإفلاته بعد.

واصل دانييل كلامه: 'إذا تعطل هاته إلي، مفهوم؟ حذار أخذها إلى أحد محلات الأجهزة الإلكترونية أو أي محلات شبيهة!'

بدأ الدم يغلي في عروقي. فهمت القصة: كان الهاتف موصولاً. لم يكن دانييل حاذقاً جداً في طرحه للأمور في الحقيقة.

كان دانييل يقوم دائماً بجلب الصور معه إلى الاجتماعات. أكوام منها في كل مرة. كان يدلقها على الطاولة ويطلب مني استعراضها والإشارة إلى أي شخص أتعرف عليه.

تعرفت على كثيرين، لأن جُل الصور كانت ملتقطة خارج مركز الرِّيَش الأربع. وبالتالي فقد كنت أشير إلى الرجال الذين كان سبق لي أن رأيتهم فيسألني دانييل عن معلوماتي حول كل منهم. لم أكن أعرف شيئاً عن أي منهم؛ كان دانييل قد طلب مني التزام الهدوء، وعدم الشروع في بناء علاقات. ثم كان يسألني عن انطباعاتي العامة. هل الرجل لافت للنظر؟ هل ذلك يبدو متعصباً بنظرك؟ كنت أعرف كيف أميز فكنت أحدد له من ينبغي تشديد مراقبته. دَوَّنَ صفحات كثيرة من الملاحظات.

ذات يوم جمعة طلب دانييل وجيل مني أن أتصل مع أبي زبيدة وأن أزوِّده برقم هاتفي الخليوي. عندما اتصلت بالرقم الذي كان الأخير قد زوَّدني به رفع السماعة في الطرف الآخر أحد الأشخاص. لم أتذكر صوته. قلت له إنني راغب في التكلم مع أبي زبيدة فسألني عن اسمي. قلت له: أبو إمام المغربي.'

كانت ثمة خشخشة، ثم جاء صوت آخر عبر الخط. 'السلام عليكم، أبا إمام. أنا أبو سعيد. كيف حالك أيها الأخ؟' كان المتكلم أبا سعيد الكردي، الرجل الذي كنت التقيته في بيشاور وكان قد رافقني إلى دارونتا. بدا سعيداً بسماع صوتي.

أجبته: 'الحمد لله! كيف حالك أنت؟'

أبلغني أبو سعيد بأن أبا زبيدة لم يكن هناك، إلا أنه - أي أبو سعيد - كان يستطيع أن يمرر رسالتي إليه أفدته بوجودي في لندن وأعطيته رقم الهاتف. قلت له إنني كنت سأوافي أبا زبيدة بعنواني فور استقراري.

بدا دانييل وجيل شديدي الانفعال عندما أنهيت المكالمة. أعتقد أن دانييل كان أخيراً قد أيقن أنني حقيقي ولستُ زائفاً، وأنني قادر على أن أكون ثميناً جداً بالنسبة إليه.

قلت لهما: 'سأبادر إلى استئجار صندوق بريدي. وسأكون بحاجة إلى بعض المال لإرساله برقياً إلى أبي زبيدة.'

بغتة، توقف الرجلان عن الابتسام. بَدَوَا مصعوقين، سأل دانييل: 'ماذا تعني؟'

'يتعين علي أن أرسل مبلغاً من المال إلى أبي زبيدة. ذلك هو السبب الكامن وراء تزويده لي برقم الحساب المصرفي.' ثم رحت أشرح من جديد ما كان ابن الشيخ قد قاله لي في الليلة الأخيرة بدارونتا: كان متوقعاً مني أن أرسل مالاً دعماً للجهاد. كان ذلك أحد أسباب قيامهم بإيفادي إلى أوروبا.

بصوت أقرب إلى الهمس قال دانييل: 'لا نستطيع إرسال أي مبالغ إلى هؤلاء الناس. ذلك ممنوع.' أومأ جيل موافقاً.

سألتُهما: 'حسناً، وكيف تتوقعانني أن أحافظ على غطائي، إذن؟ للتو قلت لهم إنني أقيم في لندن وعندي هاتف خليوي. هم واثقون، بالطبع، من أنني سأرسل لهم مالاً.' غضبتُ من كليهما. كانا يورطانني في جميع المواقف الخطرة، دون أن يُقْدما، كلاهما، على أي مخاطرة.

نظر الرجلان إليَّ بصمت، ثم أحدهما إلى الآخر. تنحنح جيل وتكلم بهدوء قائلاً: 'لماذا لا نتحدث عن هذا الأمر في وقتٍ آخر؟'

## رسالة

خلال زياراتي القليلة الأولى للرِّيَش الأربع استطعت أن ألمس أن مستوى التوتر كان صاعداً. أفراد من الجمهور كانوا يزيدون من تأكيد موضوع الحرب في الجزائر. كانت الحرب الأهلية متصاعدة ميدانياً؛ كانت الجماعة الإسلامية المسلحة دائبة على مضاعفة عدوانيتها باطّراد. بدؤوا يقتلون عائلات كاملة، بل قرى بأسرها دفعة واحدة. كل من لا يدعم الجماعة كان هدفاً مشروعاً. في إحدى المحطات تنكر أعضاء الجماعة بزي الشرطة وأقاموا حاجزاً أوقفوا فيه حافلتين ملآنتين بالمدنيين. حَزّوا رقاب الجميع عن آخرهم. أكثر من ستين نسمة، بمن في ذلك عدد من النساء، الأطفال، والمسنين. في مناسبةٍ أخرى، اقتحموا مسجداً أثناء الصلاة. أمام الإمام وجميع الآخرين المجتمعين للصلاة، قاموا بقطع رؤوس أربعة رجال بالخناجر والبلطات.

كانت الجماعة قد أعلنت نفسها المعارضة الشرعية الوحيدة للنظام العسكري. فقط الجماعة كانت قادرة على فرض الشريعة، وتحديد مواصفات المسلم الحقيقي. كل من لا يقيم الصلاة، كل من لا يبادر إلى دفع الزكاة مباشرة

إلى الجماعة، كل امرأة تغادر المنزل دون حجاب - كل هؤلاء كانوا مرتدّين، يستحقون الإعدام. كانت الجماعة تزيد تماثلاً مع الطالبان يوماً بعد يوم.

كانت ثمة أسئلة كثيرة حول الجماعة في الرِّيَش الأربع. كان الجزائريون، بالطبع، شديدي الهياج والانفعال. كثيرون لم يكونوا يصدقون التقارير التي كانوا يقرؤونها في الصحف. كانوا يعتقدون أن الجيش الجزائري كان يقترف هذه الفظاعات الشنيعة لتأليب الشعب على الجماعة الإسلامية المسلحة.

كعهده دائماً، بقي أبو قتادة مركِّزاً اهتمامه على مسائل اللاهوت (الفقه). وذات يوم جمعة ألقى خطبة كانت أطول من المألوف بكثير. بدأ الخطبة بالكلام عن رجال الدين، 'العلماء' المتوفرين على معرفة القرآن والسنة والحديث. قال إن دور رجال الدين هو الدفاع عن الإسلام الحقيقي ضد أهل البِدَع.

لم يأت أبو قتادة على ذكر الجماعة مباشرة في البداية، إلا أنه تحدث عن مفهوم التكفير، مفهوم إعلان شخص أو جماعة ما خارج دائرة الإسلام الحقيقي. وعَدَّه، عملياً، حكماً بالإعدام. بَيَّن أبو قتادة أن فتوى التكفير لا يمكن أن تصدر إلا عن فقهاء واسعي الاطلاع. إن أفراد الجماعة قد تجاوزوا حدودهم؛ ليسوا في وضع من يستطيع إقرار من هم المسلمون الحقيقيون. وأعلن أبو قتادة بوضوح كامل إيمانه بأن كل مسلم مكلف شرعاً بالعمل لإطاحة الأنظمة العلمانية في كل مكان. ولكنه أضاف أيضاً أن الجماعة لم تكن صاحبة حق، على الإطلاق، في قتل مسلمين آخرين.

صحيح أن الجمهور ظل يصغي باهتمام، غير أنني استطعت أن ألاحظ تزايد غضب بعض الجزائريين مع تواصل الخطبة. لا أعني الجميع، على أي حال؛ البعض ظلوا يومئون موافقين على ما كانوا يسمعونه. في نهاية الخطبة، أعلن أبو قتادة على بَتْر صِلاتِه مع الجماعة الإسلامية المسلحة. دانَهُم بوصفهم من أهل البدع. ثم أنهى الخطبة بدعاء.

كان التوتر شديداً لدى نهوضنا للمغادرة. مجموعة من الرجال تحلَّقَتْ حول أبي قتادة وأبي الوليد، وفي الأمكنة الأخرى استطعت أن أرى إخوة يتجادلون فيما بينهم. عندما خرجت صادفت رجلاً كان يوزع نسخاً لمنشور كُتب باللغة العربية، في المنشور، كان أبو قتادة يعلن رسمياً قطعه لعلاقاته مع الأنصار.

حين التقيت دانييل وجيل بعد ظهر ذلك اليوم، أعطيتهما النشرة. كما أبغلتهما بأنني كنت قد تدبرت أمر الصندوق البريدي، وكانا سعيدين. طلبا مني الاتصال بأبي زبيدة وتزويده بالعنوان. سألتهما من جديد عن المال، وكررا مراوغة السؤال والهروب منه. وعدا بالكلام عن الموضوع لاحقاً.

عندما نَقَرْتُ أرقام هاتف أبي زبيدة هذه المرة، جاء الرد من رجل مسن. أعطيته اسمي وقال لي أن أبا زبيدة لم يكن موجوداً. عرض تمرير أي رسالة فأعطيته عنوان صندوق البريد.

سأل الرجل المسن: 'أنت في لندن؟'

'نعم. أقيم هنا.'

سألني: 'هل تعرف شخصاً يدعى أبو قتادة؟' فوجئت بالسؤال. لم أكن قد سمعت باسم أبي قتادة في الباكستان أو أفغانستان.

أجبت: 'بلى. أعرفه. أراه كل أسبوع.'

'ليتك توصل إليه رسالة مني! أرجوك أن توصيه بالاتصال مع الأخ عبد الله في الباكستان. قل له إن الأمر مهم.'

وافقت على إيصال الرسالة وأنهيت المكالمة. عندما أخبرت دانييل وجيل بما كان قد حصل، كانا مسرورين جداً.

يوم الجمعة التالي، اقتربت من أبي قتادة بعد انتهاء الصلاة. لم يكن قد

سبق لي قط أن تكلمت معه من قبل، وانتظرت إلى أن بقي وحده لموافاته بالرسالة. بدا متفاجئاً في البداية. سألني: 'من أعطاك الرسالة؟'

أجبت: 'أخ في الباكستان.'

تشابكت نظراتنا لثوانٍ غير أن أياً منا نحن الاثنين لم ينبس ببنت شفة.

بعد نحو أسبوعين، حين وصلت إلى مكان الاجتماع مع جيل ودانييل، رأيت على الطاولة مغلفاً. كان فيه ألف دولار.

'إنه المبلغ الذي طلبته' قال دانييل.

لاحقاً بعد ظهر ذلك اليوم، ذهبت إلى مكتب تبديل عملة للسياح قرب ساحة الطرف الأغر. أرسلت المبلغ برقياً إلى الحساب المصرفي الذي كان أبو زبيدة قد زوَّدني برقمه.

أعطتني الأجهزة المبلغ نفسه للإرسال إلى الباكستان مرتين أُخريين بعد ذلك. على الدوام كنت أضطر لالتماس المال، غير أنني لم أكن أُجبر على ممارسة الضغط كما فعلت في المرة الأولى.

## أبو حمزة

تقلص جمهور أبي قتادة قليلاً بعد صدور إعلانه عن الجماعة الإسلامية المسلحة. لاحظت أن بعض الجزائريين كفوا عن المجيء. صحيح أن الباقين كانوا لا يزالون يتحدثون عن الجزائر، ويناقشون تصرفات الجماعة الإسلامية المسلحة، غير أن الأجواء في الريشات الأربع كانت أقل توتراً. من الواضح أن الأعضاء الأشد غضباً كانوا، ببساطة، قد كفوا عن المجيء.

لدى خروجي من المركز بعد ظهر أحد أيام الجمع ناولني أحدهم منشوراً فيه دعوة إلى حوار في الأسبوع التالي. كان أبو قتادة وأبو الوليد سيكونان هناك

مع رَجُلَيْ دين آخرين: أبو حمزة والشيخ عمر بكري محمد. لم يكن قد سبق لي أن سمعت بأبي حمزة، إلا أنني كنت أعرف عن الشيخ عمر لأنه كان في الصحف وعلى شاشات التلفزيون قبل بضعة أشهر. كان قد حاول تنظيم مسيرة كبرى للمسلمين في لندن، ولكنه كان قد مُنع من قبل الحكومة البريطانية.

قررت الذهاب إلى الندوة مع أنها كانت في أحياء لندن النائية التي لم يسبق لي أن كنت فيها. حين خرجت من محطة مترو الأنفاق، لم أعرف كيف أتوجه. رأيت شابين خارجين من المحطة في الوقت نفسه وتذكرت أني رأيتهما في الريشات الأربع. عرضت عليما المنشور وسألتهما عما إذا كانا قادرين على توجيهي، فبادرني أحدهما قائلاً إنهما كانا يذهبان إلى المكان نفسه وكان بوسعنا أن نمشي معاً.

كلاهما كانا جزائريين. أحدهما أكبر قليلاً في السن من الآخر، وأطول أيضاً. تبين لي أنهما، كليهما، كانا من الجماعة. ثمة كانت جملة الأشياء الصغيرة المميزة للمتطرفين عن المسلمين الآخرين: كلاهما كانا يرتديان سروالي جينز مكفوفين إلى ما فوق الكواحل كما كانا يعتمران اثنتين من قبعات التزلج على الرغم من أن الجو كان دافئاً في الخارج.

قدَّمْتُ نفسي باسم إمام. قدم الأطول نفسه باسم خالد والآخر باسم سمير. بدأنا الكلام، وأدركت أنهما كانا جزائريين لا فرنسيين من أصل جزائري. اكتشفت هذا لأن لغتهما الفرنسية كانت بائسة، فوجدنا أنفسنا مفضلين الكلام بالعربية.

سألني خالد: 'من أين؟'

'من المغرب.'

ابتسم وقال: 'لا، اقصد، من أين جئت؟'

صمتٌ برهة ثم قلت له: 'من بلجيكا.'

بادي الانشراح قال: 'صحيح! أنا أعرف كثيرين في بلجيكا. لماذا غادرت؟'

فيما لا يزيد على جزء من الثانية، قُمْتُ بروْز خياراتي. كنت أستطيع إخباره عن أمين وياسين. ممكن تماماً أن يكسبني ذلك نوعاً من المصداقية الفورية مع هذين الشابين، كما كان قد حصل مع ابن الشيخ في بيشاور. ثمة كان، بالطبع، احتمال ضعيف أن يكونا قد تحدثا مع أمين وياسين وباتا قادرين على اكتشاف حقيقتي. لم يبدُ هذا الاحتمال وارداً بنظري، فبادرت إلى التفسير دون تردد: 'غادرت لأنه تعين علي أن أفعل. هل تعرف الأخوين أمين وياسين؟'

'نعم، بالطبع.' قال خالد مندهشاً.

'كنت منخرطاً في الأنصار معهما. كانت الشرطة تبحث عني عندما حصلت الحملة فتعين علي أن أغادر البلد.'

لم يبدُ على أي من خالد أو سمير أي علامة شك؛ بَدَوَا بالغي السعادة لالتقائهما معي. عندئذٍ أيقنت أننا كنا سنصبح أصدقاء.

كان ذلك هو اليوم الذي رأيت فيه أبا حمزة للمرة الأولى. كان رجلاً شديد الغرابة من حيث الشكل: عين واحدة، وبلا يدين. حيث كان ينبغي ليده اليمنى أن تكون كانت ثمة ذراع اصطناعية غريبة منتهية بكلاّب فضي. بدا أشبه بقرصان. بعد بضع دقائق تذكرت: إنه الأخ الذي كان أسد الله قد حدثني عنه في دارونتا، ذلك الذي نسف يديه بتراً في أثنا إعداد النيتروغليسرين. ذُهلت.

وتضاعف ذهولي بعد أن سمعت أبا حمزة وهو يتكلم. لم يكن يعرف شيئاً عن اللاهوت (الفقه)، وهو أمر بدا غريباً بالنسبة إلى شخص تخرج في "أكاديميات" معسكرات التدريب. كان عالي الصوت مفرط الحماسة، غير أنه بدا لي أيضاً بالغ الضحالة من حيث الاطلاع. كان يحاول الدفاع عن الجماعة

الإسلامية المسلحة من منطلقات الشرع الإسلامي، غير أنه لم يكن، على ما بدا لي، يعرف ما كان يتكلم عنه. كان الأمر واضحاً بالنسبة إلى كل من أبي قتادة وأبو الوليد أيضاً؛ نجحا في الإجهاز على كل واحدة من الحجج التي ساقها إجهازاً كاملاً. كان عمر بكري محمد أكثر إطلاعاً وقد ساعد أبا حمزة على طرح فكرته والدفاع عن قضيته.

خرجت من ذلك اللقاء مستوعباً أمرين بوضوح شديد: كان أبو قتادة باحثاً (أكاديمياً) حقيقياً، ولم يكن أبو حمزة أكثر من دجال مضلِّل (ديماغوجي).

حين حَدَّثْتُ دانييل وجيل عن الحوار مع أبي حمزة، أبديا قدراً كبيراً من الرضى. وحين أخبرتهما بما كان أسد الله قد قاله عن أبي حمزة، دُهش الرجلان واستمتعا. قالا إن أبا حمزة كان يزعم أنه كان قد فقد يديه وهو يفكك لغماً أرضياً في إحدى جبهات القتال في أفغانستان.

أبدى دانييل وجيل اهتماماً كبيراً بخالد وسمير، ولاسيما بعد إخبارهما بأنهما كانا على معرفة بأمين وياسين. فهذان الاسمان كانا من الأسماء المستعارة بالطبع ولم يكونا واردين في أي جرائد. أدرك دانييل وجيل، كما فعلت أنا، أن خالداً وسميراً يجب أن يكونا وثيقي الصلة بالجماعة الإسلامية المسلحة. أوصياني بالعمل على الاقتراب منهما أكثر.

ذات يوم جمعة، ذهبت إلى لقائي العادي مع دانييل وجيل، ولكنني لم أجد إلا الأول هناك. في المصعد ونحن ذاهبان إلى الغرفة أخبرني بأنه كان قد طلب من جيل عدم المجيء في ذلك اليوم. فوجئت؛ كان جيل دائم الحضور لاجتماعاتنا.

حين دخلنا الغرفة وجدنا مائدة عليها وجبة غداء فاخرة. التفتُّ إلى دانييل ملتمساً تفسيراً.

قال: 'لم نبدأ بداية سارة. أعتقد أن ساعة بداية جديدة قد دقت.'

تحدثنا في ذلك اليوم عدداً من الساعات. كان ممتعاً؛ كان يعرف أشياء كثيرة عن السياسة، وإن لم يكن عن الإسلام. سألني عن حياتي أيضاً. للمرة الأولى شعرت بأنني لم أكن مجرد مخلب بيده. باتت علاقتنا أيسر بكثير بعد ذلك.

## صيد ثمين

كنت أزيد من الوقت الذي أقضيه مع خالد وسمير باطراد. ونظراً لإثباتي قَدْراً كبيراً من المصداقية فيما يخص الجماعة الإسلامية المسلحة بعد إتياني على ذكر اسمَيْ أمين وياسين، فإنهما، كليهما، كانا يتحدثان معي بصراحة كاملة. إلا أن خالداً هو الذي كان يتولى معظم الكلام. في حين بقي سمير صموتاً ومذعناً لصديقه الأكثر جرأة.

بعد فترة غير طويلة أخبرني خالد أن الشرطة كانت تبحث عنه في فرنسا بعد التفجيرات في صيف 1995. كان قد فر إلى ألمانيا، حيث عاش في فوبرتال فترة قصيرة. غير أنه لم يحس بالأمن هناك أيضاً، كما قال، فقرر الهجرة إلى إنجلترا.

في أحد الأيام أخبرني خالد بأن بعض أصدقائه الموجودين في ألمانيا كانوا في زيارة للندن وكانوا سيأتون إلى الريشات الأربع لأداء صلاة الجمعة. غير أنهم لم يكونوا قد وصلوا بعد رغم بدء الصلاة، فجلسنا: خالد، سمير، وأنا نصغي إلى خطبة أبي الوليد.

بعد بضع دقائق رأيت خالداً يدير رأسه نحو باب الباحة. التفتُّ أنا أيضاً فشاهدت ثلاثة رجال في المدخل. قشعريرة باردة عبرت عمودي الفقري. تذكرت أحد الرجال. وعلى الرغم من أنني كنت أعرف أنني أعرفه فإنني لم أكن قادراً على إماطة اللثام عن هويته الحقيقية.

فيما انطلق خالد وسمير نحو أصدقائهم، اكتفيت أنا بإمعان النظر في هذا الرجل. كان رشيق الملبس ـ كان يرتدي سترة جلدية سوداء مع سروال جينز، وينتعل حذاء رياضياً. بقيت عاجزاً عن تمييزه، غير أن شكاً ظل يراودني بأني كنت قد رأيته من قبل.

كان الرجل يشي بشيء خطر؛ أحسست بالأمر في دمي. خلال الفترة المتبقية من الخطبة، بقي عقلي يدور بسرعة وأنا أحاول تذكر الرجل. كنت كثير القرب ولكن دون وصول. كنت أعرف أن هذا الرجل كان مهماً على نحوٍ معين، وأن علي أن أنأى بنفسي عنه.

مع انتهاء الصلات، اندفعت نحو مدخل الصالة، مررت، في طريقي، بسمير وخالد وودعتهما على عجل. ألقيت نظرة واحدة أخيرة على الرجل ومشيت خارجاً، بعد ذلك، إلى الشارع. عندئذ أقدمْتُ على شيء كان دانييل قد أوصاني ألا أُقْدم عليه أبداً: اتصلت به عبر هاتفي الخليوي، من أمام الريشات الأربع مباشرة. كان دانييل قد حَذَّرَني من هذا لمعرفته بأن من شأنه إثارة الشكوك، غير أنني كنت متأكداً من عدم قدرتي على الانتظار إلى حين حلول موعد اجتماعنا لاحقاً في ذلك اليوم كي أخبره عن هذا الرجل. تركت رسالة لدانييل وعاود الاتصال مباشرة.

'هناك، يا دانييل شخص في الريشات الأربع. يجب أن يطبق عليه رجالك ويلتقطوا صورة له مباشرة.' كنت قد رأيت عدداً كبيراً من الصور الملتقطة خارج مركز الريشات الأربع مما جعلني على يقين بأن هناك مصورين قريبين.

سأل دانييل: 'ومن يكون؟'

اعترفت: 'لا استطيع تحديده بدقة. سبق لي أن رأيته من قبل، مع ذلك، وهو صيد ثمين جداً حسب تقديري.'

التقيت دانييل وجيل بعد ساعتين. عندما دخلت الغرفة شعرت بأنهما كانا منفعلين. لاسيما جيل بدا استثنائي النشوة. سأل: 'هل تعرف من كان ذلك؟'

'لا' قلت. لم أكن قد ميزته بعد. 'غير أنني أعتقد أنه مهم.'

كشر جيل: 'نعم. أنت على صواب مئة بالمئة. كان ذلك هو علي توش ـ طارق من بروكسل. كان هو المسؤول عن تفجيرات باريس في العام الماضي.'

كنت مشدوهاً. لم أستطع أن أصدق أنني لم أتذكره. كنا قد عشنا تحت سقف واحد في بروكسل مدة دامت أسابيع.

سألت: 'هل أنتما متأكدان؟'

'نحن متأكدان على نحوٍ مطلق. نجح مصورونا في التقاط صورته.'

فكرت بالموضوع قليلاً. كان طارق ذا لياقة بدنية عالية جداً حين عرفته، أما هذا الرجل فكان أكثر بدانة قليلاً. ربما كان وزن طارق قد زاد، وكان ذلك قد انعكس على وجهه. كذلك كان شعره أطول، وتساءلت عما إذا كان ذلك ما كان قد أدى إلى تشوشي. ما كان دانييل وجيل يقولانه لي بدأ يبدو أكثر إقناعاً. إذا كان ذلك صحيحاً، سأكون قد وفَّرت للأجهزة فرصة هائلة.

سألت: 'ما الذي ستفعلونه؟'

قال دانييل بثقة: 'كلفنا عناصرنا بتعقبه. لن يفلت منا هذه المرة.'

في لقائنا التالي سألت دانييل وجيل عما إذا كان تم إلقاء القبض على علي توش. تبادلا النظرات ولم يقولا شيئاً.

ألححت: 'حسناً، ماذا حصل؟'

'ماذا؟' لم أستطع أن أصدِّق ما كنت أسمعه. نظرت إلى جيل وتمكنت من رؤية مدى حدة غضبه. 'كيف استطاع أن يفلت منكم؟'

بدا دانييل محرجاً. كان في مقهى. كان شبابنا يراقبونه. فجأة اختفى بطريقةٍ ما.

نظرت إلى جيل ثانية، غير أنه كان يمعن النظر في الطاولة. عدت إلى الالتفات إلى دانييل، غير أنني أدركت أنه لم يكن قد بقي أي مزيد يمكن قوله. قلت بيني وبين نفسي: أضيّع وقتي هنا. ليس لدى البريطانيين أي فكرة عما يفعلونه.

بعد بضعة أسابيع انفجرت قنبلة أخرى في متروباريس. التفاصيل كانت شديدة الوضوح مثل القنبلة التي كانت قد انفجرت في متروباريس حين كنت في خالدان، هذه القنبلة وُضعت أيضاً في إحدى عربات قطارات آر إي آر RER ساعة الذروة. وحسب التقارير الإخبارية القنبلة نفسها ـ عبوة ناسفة مشحونة بمتفجرات ومسامير لتكون شظايا ـ كانت أيضاً ذاتها.

تمخض الانفجار عن مقتل أربعة أشخاص وجرح نحو مئتين. السلطات في طول أوروبا وعرضها بدأت بحثاً مكثفاً عن علي توش. كان قد راوغ الاعتقال عدداً من المرات بعد مداهمات بروكسل وفي سلسلة لاحقة من المرات الإضافية بعد التفجيرات الحاصلة في باريس في ذلك الصيف. كان سيفلت هذه المرة أيضاً.

في شباط/فبراير 1998، تحدثت السلطات الجزائرية عن أن توش كان قد قُتل قبل تسعة أشهر في مدينة الجزائر. طالب الفرنسيون بالبصمات وحين وصلت هذه البصمات أكدت الشرطة تطابقها مع ما كان لديها في الملفات عن توش. غير أن الفرنسيين الذين حاكموا العشرات من أعضاء الجماعة الإسلامية المسلحة المشبوهين في الشهر نفسه على ما اتهموا به من أدوار في تفجيرات 1995، وجدوا أن محاكمهم دانت توش غيابياً. لم يقتنعوا بموته فعلاً.

خلال تلك المحاكمات، ادعى عدد قليل من المتهمين أن توش لم يكن عضواً في الجماعة الإسلامية المسلحة على الإطلاق. أفادوا بأنهم ذهبوا ضحية استغلاله لهم، وبأنه لم يكن في الحقيقة إلا عميلاً مدسوساً زرعته أجهزة استخبارات الجيش الجزائري. هذه الشائعات لا تزال متداولة إلى اليوم.

حين يكون الأمر متعلقاً بعلي توش، لا يعود أي شيء يقيناً.

## عملية الاستيلاء

لم يكن خالد سعيداً بقطع أبي قتادة لروابطه مع الجماعة الإسلامية المسلحة. ومع أنه كان لا يزال يتردد على الريشات الأربع، فإنه كان دائم الكلام عن خيانة أبي قتادة للإخوان في الجزائر. كان يتحدث أيضاً عن أبي حمزة، وأبلغني بأنه كان يحضر المزيد من لقاءاته. وذات يوم جمعة اقترح أن التقيه الأسبوع التالي في جامع فينزبوري بارك حيث كان أبو حمزة قد بدأ يخطب بانتظام.

لم أكن قد سمعت عن جامع فينزبوري بارك قبل الآن، غير أن كلاً من دانييل وجيل اهتما كثيراً حين أبلغتهما بالأمر. وبالتالي فإنني بادرت يوم الجمعة التالي إلى أخذ قطار مترو الأنفاق للقاء خالد وسمير.

لم يكن الوضع شبيهاً بما كنت قد توقعته على الإطلاق. كان دانييل وجيل بالغي الاندهاش إزاء توقعي رؤية قاعة ملأى بحشد من المتطرفين. غير أن أكثر الرجال الذين رأيتهم لم يكونوا من تلك النوعية. كانوا مهاجرين من الباكستان والهند وأفريقيا الشمالية والشرق الأوسط، لا أكثر. رأيت بضعة أشخاص في السروال والقميص، ولكن هؤلاء ربما كانوا من الأفغان؛ لم أكن متأكداً. ومع ذلك فإن معظم من رأيتهم لم يكونوا، ببساطة، إلا أناساً جاؤوا إلى الجامع لأداء صلاة الجمعة.

كانت ثمة منصة عالية أمام المسجد، وكان أبو حمزة جالساً هناك. غير أن إماماً باكستانياً كان يخطب من على المنبر. لم يكن يتكلم بالإنجليزية أو العربية فلم أفهم كلمة مما قاله.

قابلت خالد في فينزبوري بارك الجمعة التالية. كان المشهد حتى أكثر غرابة هذه المرة، كانت الفوضى سيدة الموقف في الحقيقة. كان الناس يتصايحون في كل مكان. في القاعة، على الأدراج، عند المدخل.

خطوط الجبهة كانت واضحة: العرب ضد الباكستانيين. كانوا يتجادلون بالإنجليزية فاستطعت أن أتابع كل ما كانوا يقولونه. كان الصراع حول السيطرة على الجامع. كان الباكستانيون مصرِّين على بقاء إمامهم، والعرب كانوا يريدون تنصيب أبي حمزة.

كنت أعرف الطرف الذي كان خالد وسمير يؤيدانه، فاكتفيت بالتفرج من بعيد. رأيت عدداً من الرجال الذين لم أكن قد رأيتهم في الأسبوع السابق: شباب من شمال أفريقيا بأكثريتهم. كانوا متحلقين حول أبي حمزة.

كان الصخب يتعاظم داخل المسجد. كان الناس يتبادلون الصراخ والزعيق فيما بينهم بكثير من الحدة إلى درجة أنني لم أكن سأُفاجأ فيما لو شاهدت البعض متشابكين بالأيدي. غير أن كل شيء ما لبث أن هدأ بغتة لحظة حلول موعد بدء الصلاة. كان ثمة استنكار واحتجاج: عشرات الباكستانيين والهنود بل وبعض أبناء شمال أفريقيا غادروا ببساطة. ثم مشى أبو حمزة إلى المنبر وبدأ يخطب.

أربكني ما كنت قد رأيته في ذلك اليوم كثيراً. غير أني ما لبثت أن علمت من الصحف، في الأسابيع التالية، أن أبا حمزة كان قد استولى على مسجد فينزبوري بارك. كان الأمر موضوع خلاف شديد؛ كان الباكستانيون غاضبين ومصرين على استعادة جامعهم.

غير أن أبا حمزة كان قد رسخ أقدامه، وشهد الجامع نوعاً من الانقلاب معه. صار أشخاص مختلفون يأتون إلى فينزبوري بارك بعد الانقلاب، أشخاص أكثر شباباً، أقل استقراراً في حيواتهم.

كان الجمهور الجديد أدنى مستوى تعليمياً أيضاً. أدركت هذا لأن أي شخص مطلع إسلامياً لم يكن سيصغي إلى أبي حمزة. فالأخير لم يكن يعرف شيئاً على الإطلاق. كان فقط يلوح بكلابه مسعوراً ويصرخ. كان دائم الصراخ والزعيق عن الجهاد. لم يبادر مرة إلى شرح الجهاد مثلما كان يفعل أبو قتادة؛ كان يكتفي بالصراخ عن ضرورة الجهاد. الجهاد ضد أمريكا. الجهاد ضد اليهود. الجهاد ضد الكفار. الجهاد ضد حكومات الجزائر ومصر واليمن. الجهاد. الجهاد. الجهاد.

وجدتُ قَدْراً كبيراً من الصعوبة في الاستماع إلى أبي حمزة، لا لمجرد أن صوته كان عالياً جداً، بل ولأن مواعظه كانت شديدة الغباء. غير أنني ما لبثت أن أدركت أن أبا حمزة نفسه لم يكن غبياً. كان يدغدغ مشاعر جمهوره. ومع مرور الأسابيع أسبوعاً بعد آخر تعرفت أكثر على جمهوره، نعم تعرفت حرفياً على هذا الجمهور. أعداد كبيرة من الرجال كانوا يهاجرون من الريشات الأربع إلى فينزبوري بارك، تماماً كما كان خالد وسمير قد فعلا. لا، لم يكن أبو حمزة غبياً على الإطلاق. كان يعرف أن الناس غضبوا من أبي قتادة لانشقاقه عن الجماعة الإسلامية المسلحة. كان أبو حمزة قد انتهز الفرصة المناسبة، قد أمسك باللحظة الحاسمة.

صرت أتردد على فينزبوري بارك بانتظام بعد ذلك. وحين كنت أهم بتقديم تقرير إلى دانييل وجيل عن أبي حمزة، كان الأول يبادر إلى طرح السؤال نفسه مرة بعد أخرى: هل كان أبو حمزة يحرِّض أتباعه على شن هجمات داخل إنجلترا؟

في الحقيقة لم يكن أبو حمزة يفعل ذلك. كان دائباً على تحريض أتباعه على مهاجمة كل الأمكنة الأخرى، باستثناء إنجلترا، وحدها إنجلترا. اقترب من هذا الخط الأحمر عدداً غير قليل من المرات حين حَرَّضَ أتباعه على مهاجمة كل من حاول الاستيلاء على الأرض الإسلامية. مرات كثيرة قال إن الجنود والمستعمرين البريطانيين في البلاد الإسلامية أهداف مشروعة.

غير أنني لم أكن قادراً قط على إعطاء دانييل الاقتباس الذي كان يعقد الأمل عليه. فطوال مدة مواصلتي التردد المنتظم على جامع فينزبوري بارك لم يُقْدم أبو حمزة على تجاوز ذلك الخط.

## القائد الروحي

على الرغم من أنني كنت أذهب إلى فينزبوري بارك بانتظام مع خالد، فقد واصلت حضور صلوات ومحاضرات في الريشات الأربع أيضاً. كنت أفضل الأخيرة لأن أبا قتادة وأبا الوليد كانا بالغي الحصافة والصرامة في تعليمهما. لم يكونا أقل تطرفاً من أبي حمزة؛ ربما العكس تماماً في الحقيقة. غير أنهما كانا يقاربان المسائل على نحوٍ مختلف. كانا يكثران من الكلام عن القرآن والسنة والحديث. يكثران من الكلام عن الجهاد. ويكثران من الكلام عن العملية التي كان يتعين على أي إنسان أن يمر بها ليصبح مجاهداً.

علمتني تجربتي في المعسكرات أن من شأن هذه اللغة أن تكون شديدة الإغواء. فأبو قتادة وأبو الوليد كانا قادرين على التوغل في عقول أتباعهما أعمق مما كان أبو حمزة يستطيع أن يفعل في أي من الأوقات؛ كنت متأكداً من ذلك. لم يكن الأخير خطراً إلا بالقول. أما أبو قتادة وأبو الوليد فكانا كذلك بالفعل.

بالطبع، كنت أعرف أن أبا قتادة وأبا الوليد كانا خطرين لسبب آخر أيضاً. كنت أمرر لهما رسائل مباشرة من أبي زبيدة والمحيطين به في بيشاور. وذات يوم

تكلمت مع أبي زبيدة نفسه، وقد طلب مني أن أكلم أبا الوليد باسمه قائلاً: 'بلّغه أن الأمـانة لم تصل قط. واطْلُبْ منه أن يجلب الكتـاب للإخـوان في زيارته القادمة.'

كانت الرسائل على هذا النحو دائماً: مُشَفَّرة، غامضة. إلا أن فهمي أو عدم فهمي لها لم يكن مهماً. كان المهم هو أن الرسائل كانت تصل إلى الريشات الأربع مباشرة من الرجال المسؤولين عن إدارة معسكرات التدريب في أفغانستان.

أقله كنت أعتقد أن ذلك هو المهم. إلا أن دانييل وجيل لم يكونا موافقين على ذلك، على ما بدا، لأنهما طلبا مني بُعَيْد استيلاء أبي حمزة على جامع فينزبوري بارك أن أتوقف عن التردد على الريشات الأربع.

أصابني الذهول، وتملكني الغضب. كنت قد حقَّقْتُ تقدماً في الريشات الأربع. كنت قد نقلت رسائل من بيشاور إلى كل من أبي قتادة وأبي الوليد. كان ثمة رجال من معسكرات التدريب في الريشات الأربع. كان ذلك هو المكان الذي تحريت فيه على توش.

كان أبو حمزة ديماغوجياً (دجالاً)؛ كلباً عالي النباح، لا أكثر. جادلتُ دانييل وجيل وحاولت أن أبيِّن أن أبا قتادة كان أخطر من أبي حمزة، وإن بدا أقل سُعاراً. ولكنهما لم يكونا مستعدين للإصغاء إلى كلامي، كما لم يكونا مستعدين للتراجع.

تلقيت أوامري. من ذلك الوقت وصاعداً كان ترددي سيبقى محصوراً بجامع فينزبوري بارك.

لن تتاح لي قط فرصة معرفة السبب الكامن وراء قيام دانييل وجيل بمنعي من التردد على الريشات الأربع. ربما لأنهما كانا يشغّلان شخصاً آخر هناك ولم يعودا بحاجة إلى خدماتي. أو ربما كانا مخطئين ونقطة على السطر. وأنا الآن أعرف يقيناً أنني كنت على صواب فيما يخص أبا قتادة وأبا الوليد.

أبو قتادة الآن صاحب شهرة. جرى وصفه على أنه القائد الروحي للحركيين الإسلاميين في أوروبا. وهو الآن في السجن في إنجلترا بانتظار تسليمه إلى الأردن حيث حُكم غيابياً بجرم تدبير هجمات إرهابية.

كثيرون يعتقدون أن أبا قتادة كان داعية للقاعدة في لندن، وأن عدداً كبيراً من الشخصيات الأخطر في القاعدة كانوا من تلاميذه أو المتأثرين به. أشرطة فيديو مواعظه عُثر عليها في شقة محمد عطا، قائد هجمات 9/11.

وجمال بغال الذي اعترف لاحقاً بتدبير مؤامرة لنسف السفارة الأمريكية في باريس، قال إنه انجذب بداية إلى الإسلام المتطرف تحت تأثير أبي قتادة. ثمة روايات كثيرة تفيد بأن مقترفي جريمة تفجيرات مدريد حاولوا، حين وجدوا أنفسهم محاصرين في شقتهم من قبل الشرطة، أن يتصلوا مع أبي قتادة في السجن قبيل الإقدام على تفجير أنفسهم.

كذلك كان أبو الوليد على علاقة مع كل من البغال وعناصر تفجيرات مدريد، وإن بقي أقل شهرة جراء اختفائه في أفغانستان. يبدو أن أحداً لا يعرف أين هو الآن.

يقينياً نعرف الآن أين هو أبو زبيدة: إنه في خليج غوانتانامو. لدى إلقاء القبض عليه في 2002، كان يحتل المرتبة الثالثة على قائمة أمريكا للإرهابيين المطلوبين الأخطر، بعد بن لادن ونائبه أيمن الظواهري مباشرة. كان أبو زبيدة كبير دعاة بن لادن على صعيد التجنيد في منظمة القاعدة. كان مشرفاً على الخلايا النائمة في طول العالم وعرضه، وقد ظهر اسمه بالارتباط مع عدد من الهجمات الإرهابية.

## فاطمة

كان دانييل وجيل شديدي الاهتمام بخالد، وقد ألحا علي طالبين أن أوثق علاقتي به. كنت أتحدث معه بانتظام وأذهب إلى فينزبوري بارك أسبوعياً.

كان خالداً وثيق الارتباط بكل من أفغانستان والجزائر. كثيراً ما كان يحدثني عن أحداث معينة قبل نشرها في الصحف بزمنٍ غير قصير؛ أحداث مثل مقتل أحد قادة الجماعة الإسلامية المسلحة في بيشاور، أو أحد تفجيرات السيارات المفخخة في الجزائر.

ذات يوم، قررت أن أُطْلِع خالد على حقيقة قضائي لعام كامل في معسكرات التدريب الأفغانية. كنت واثقاً من أن من شأن ذلك أن يدفعه إلى المزيد من الانكشاف والبوح عن نفسه. وكنت على صواب: أعلمني خالد بأنه كان يستعد للذهاب إلى أفغانستان للتدرب في المعسكرات. أفاد بأنه كان عليه أولاً أن يحصل على الوثائق السليمة وبأنه كان موشكاً على تأمينها. كان له صديق كان عاكفاً على تزوير جواز سفر إيطالي باسمه، غير أنه كان بحاجة إلى صورة أولاً. كان يحاول العثور على عدسات لاصقة خضراء.

أدى الأمر إلى إثارة دَهْشة دانييل وجيل كثيراً. كانا على الدوام قادرين على تأكيد صحة الروايات الصادرة عن خالد حول اتصالاته الخارجية. أرادا أن يعرفا المزيد عنه، وأن يقفا على المدى الذي كان سيبلغه.

في أحد الأيام، جاء دانييل إلى اجتماعنا مصطحباً خطة. كانت الأجهزة ستستأجر مستودعاً. وكنت أنا سأبلغ خالداً بأني كنت أخزّن أسلحة في المستودع لشحنها إلى الجزائر وأسأله عما إذا كان لديه أي إخوان بحاجة إلى مكان لتخزين ذخائرهم، معبراً عن استعدادي لمساعدتهم عن طيب خاطر. وبعد ذلك، إذا ظهر خالد أو أي أحد غيره ومعه أسلحة، فإن الشرطة ستكون قادرة على إلقاء القبض عليهم متلبسين.

كدت أنفجر من الضحك. سألت: 'ألا ترى أن من شأن ذلك أن يبدو مثيراً لشيء من الريبة؟'

بدا دانييل مرتبكاً. قال: 'كيف ذلك؟'

شرحت له قائلاً: 'لأن هؤلاء الزبائن أذكى من أن يخاطروا بما ينعمون به في إنجلترا. إن إنجلترا ملاذ آمن بالنسبة إليهم.'

أومأ دانييل، غير أنه لم يكن قد استوعب معنى ما قلته على ما بدا بوضوح. تابعت. شرحت أن من شأن إنجلترا أن تكون مكاناً غبياً لتخزين الأسلحة بالنسبة إلى أي شخص، في جميع الأحوال. نقاط المراقبة الحدودية هي الجزء الأخطر في عمليات تهريب السلاح. في حين أن فرنسا، إسبانيا، ألمانيا، إيطاليا - موقعة جميعاً على اتفاقية شنغن التي أزالت نقاط المراقبة الحدودية فيما بينها، فإن بريطانيا ليست طرفاً في هذه الاتفاقية. فلماذا تقدم الجماعة على مخاطرة تخزين الأسلحة في مكان يواجه خطر حدود إضافية؟

لم أكن ملزماً بشرح هذا كله لدانييل. بات يتضح لي أكثر فأكثر أن الأجهزة البريطانية لم تكن تفهم شيئاً ذا شأن عن نمط عمل هذه الجماعات.

جاءنا دانييل بفكرة جديدة بعد بضعة أسابيع. قال: 'أُخْبر خالداً بأن عندك قنبلة يدوية. سيشد الأمر انتباهه. ثم تستطيع أن تعرضها عليه. أراهن على أنه سيطلب الاحتفاظ بها، فتعطيه إياها.'

سألته: 'تريدني أن أزوّد خالداً بقنبلة فعالة؟'

هز دانييل برأسه: 'لا، بالطبع لا. لم أقصد قنبلة فعالة.'

أدركت ما كان دانييل يريدني أن أفعله. كان يريد أن أعطي خالداً قنبلة يدوية مجهزة من الداخل بنوع من أنواع أجهزة التعقب. ثم لا تلبث الأجهزة أن تتمكن من الاهتداء إلى المكان الذي تخزن فيه الجماعة أسلحتها. يا له من جنون كامل!

obeikandl.com

سألته: 'هل تمزح؟'

أجاب دانييل: 'لا، لماذا؟'

'لأن من شأن هذا أن يكشف الغطاء عني مباشرة، فأتعرض، ربما، للقتل.'

'لماذا؟ أعني قد لا يعمدون إلى فتح القنبلة اليدوية.'

يا للحماقة! 'بل سيفعلون بالتأكيد بطبيعة الحال؛ سيفككون القنبلة. ففي أفغانستان تعلمنا كل شيء عن الرمانات؛ كيف نفخخها، كيف نفككها. بل وقد تعلمنا كيف نشرب السوائل منها! أَوَتظن أن أي شخص يعرف كل شيء عن المتفجرات من شأنه أن يمتنع عن فتحها ورؤية ما فيها؟'

إن مدى ضآلة معلومات خبراء الإرهاب المزعومين هؤلاء عن عدوهم كان مثيراً لقدرٍ غير قليل من السخرية. لم يكونوا يدركون، على ما يبدو، أن هؤلاء - الإرهابيين - أناس جدّيون حائزون على قدرٍ كبير من المعارف، لا مجرد أطفال يتلهون بأسلحة دُمْيَوية مخصصة للعب.

ومما زاد غضبي من خطط دانييل أنها كشفت لي عن مدى استعداد الأجهزة لتعريضي لمخاطر فعلية. لم تبدُ هذه الأجهزة عميقة التفكير بأي أمر، أو ساعية إلى تعلم المزيد عن آليات عمل العدو. كانت تترك أوهامها تجمح بها، فتعرضني أنا لأفدح الأخطار.

شيئاً فشيئاً، أصبحت أدرك أنني كنت ألعب بالنار. بطبيعة الحال، لم يكن أي من دانييل أو جيل يعرف الخطر الذي كنت فيه، لأن أياً منهما لم يكن يعرف شيئاً عن الحوار الذي كنت قد أجريته في اليوم الذي سبق يوم المداهمات. لم يكونا يعرفان أن أميناً، ياسين، وحكيماً كانوا، جميعاً، يعرفون أنني انحرفت وتورطت بالعمل لصالح جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE).

كنت أعرف أنني كنت أعرِّض نفسي للخطر منذ اللحظة التي ذكرت فيها اسمَيْ أمين وياسين أمام خالد. غير أن الاسمين كانا بطاقة دعوتي. كان الاسمان قد مكّناني من التوغل مباشرةً في قلب المعسكرات. فما إن وصلت إلى خالدان حتى اكتشفت أن كثيرين من الإخوان هناك كانوا قد أُخضعوا للاختبار أشهراً قبل السماح لهم بالدخول. أما بالنسبة إلي فلم تكن قد استغرقت سوى يوم واحد.

وها أنا ذا الآن في وضع مرعب. الأمر الذي كان يمكّنني من أداء مهمتي بوصفي جاسوساً بات يزيد احتمالات تعرضي للانكشاف باطراد.

ذات يوم، اتضح على نحوٍ مخيف كم كنت قريباً من حافة الهاوية. حَدَّثني خالد عن أن بعض أصدقائه في بلجيكا كانوا قد زاروا أميناً وياسين في السجن. لم يقل شيئاً أكثر من ذلك، مما بيَّن أن أحداً لم يكن قد رأى وجود أي رابط هذه المرة. ولكن ما الذي كان يمكن أن يحدث في المرة القادمة، أو في المرة التي بعدها؟

كانت حياتي في لندن مضغوطة زاخرة بالإجهاد كما لم يسبق لها أن كانت قط في المعسكرات. جزئياً، كنت محبطاً لأن نشاطاتي صارت تبدو بلا أي هدف. حين كنت أعمل مع جيل في بلجيكا، كان من الواضح على الدوام أننا كنا نعمل في سبيل تحقيق شيء ما. فجهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) كان يسعى للقيام بحملة اعتقالات والإجهاز على شبكة الجماعة الإسلامية المسلحة.

أما في لندن، فلم يكن الأمر واضحاً. شعرت كما لو كنت موجوداً فقط للمراقبة. أسبوعياً كنت أذهب إلى فينزبوري بارك، وأسبوعياً كان دانييل يطرح علي الأسئلة نفسها. كنت أعكف على معاينة الصور، صورة بعد أخرى، دون أن

يتمخض ذلك عن أي شيء. والمرة الوحيدة التي زوَّدتُهم فيها بهدف مهم حقاً - علي توش - طيّروه من أيديهم.

في لندن شعرت بالحاجة إلى الراحة والاسترخاء أكثر من أي وقتٍ مضى. كنت أقضي فترات طويلة من الوقت في كوفنت غاردن في الأماسي، مستمتعاً باحتساء الخمر في المطعم الكائن في الطابق الأرضي والاستماع إلى عزف العازفين. كنت أعرف أن دانييل لم يكن يريد أن أذهب إلى هناك؛ كان يريدني أن أصادق العرب وأتحرى المتطرفين. غير أنني بقيت أيضاً مصراً على أن تكون لي حياتي الخاصة.

ذات يوم، قررت الاتصال بفاطمة. كنت مشغولاً خلال أشهري الأولى في لندن، مما كان قد جعلني أؤجل موضوع الاتصال. أما الآن فوجدتني راغباً في التحدث معها، في رؤيتها ثانية. أدرت الرقم الذي كانت قد زودتني به، رقم صديقتها.

ثمة كانت معجزة صغيرة. لحظة رفع الصديقة للسّماعة، كانت فاطمة في الغرفة في اللحظة ذاتها. كانتا تحزمان الأشياء وتوضِّبان الشقة لأن صديقتها كانت ستنتقل في اليوم التالي. لو كنت قد انتظرت مدة أربع وعشرين ساعة أخرى، لما كنت قد وجدتها ثانية.

بدأنا من حيث كنا، فاطمة وأنا، قد توقفنا في باريس. وحين كنا ننخرط في الكلام لم نكن نعرف كيف نخرج منه. صرت أتصل بها يومياً بعد ذلك، ودفعت آلاف الجنيهات فواتير تلفونات.

## دفتر الملاحظات

لعل الأمر الذي فاجأني حول دانييل هو أنه لم يسألني قط عن معسكرات التدريب في أفغانستان. كان جيل قد طرح علي بعض الأسئلة وأنا في باريس، أما

دانييل فلم يُبْدِ أي اهتمام بالمطلق. الشيء الوحيد الذي استطعت التفكير به هو أن الأجهزة البريطانية لم تكن، بالضرورة، مفتقرة إلى جواسيس تابعين لها داخل أفغانستان. تذكرت الدليل الذي كان قد أوصلني إلى خالدان. فكرت بالطباخين. بالسائقين. كان من شأن شراء أحد هؤلاء أن يكون رخيصاً جداً بالنسبة إلى الأجهزة.

لم يكن دانييل شخصاً شريراً؛ بدا فقط عاجزاً عن فهم ما كان الغرب يواجهه. مبكِّراً، كان هو وجيل قد سألاني عما إذا كنت قد سمعت بعبارة القاعدة في المعسكرات، عما إذا كنت أعرف ما تعنيه. كنت أعرف ما تعنيه: القاعدة تعني "الأساس" باللغة العربية. غير أنني لم أكن قط قد سمعت العبارة في المعسكرات. سألاني عما إذا كنت قد سمعت عن أسامة بن لادن. حين قالا عنه كلاماً أكثر قليلاً عنه، أدركت أنهما كانا يشيران إلى الشخص نفسه الذي كان الصبيان الكنديان، حمزة وأسامة، قد تحدثا عنه في خالدان. سألني دانييل عما إذا كان ابن لادن قائد الجهاد، وقد تعين عليَّ أن أفسر له أن بن لادن بالذات لم يكن مهماً. فالجهاد ليس حركة سياسية، أوضحت له. إن الجهاد ليس هو الجيش الجمهوري الإيرلندي، الآي آر ايه IRA أو عصابة بادر ـ ماينهوف. الجهاد فرض من الله. لا ضرورة لأي وساطة بشرية.

بدا جيل متفهماً لهذا الكلام أفضل من دانييل. بالطبع، كان الفرنسيون قد عاشوا قروناً مع العالم الإسلامي عند بابهم الخلفي. إلا أن جيل كان أيضاً قادراً على فهم لغة الإسلام. كان يسأل أسئلة مهمة عن خُطَب أبي قتادة وأبي حمزة. لم يكن يتردد في مطالبتي بتوضيح إحدى النقاط اللاهوتية أو الفقهية، أو بشرح معنى سورة معينة. أما دانييل فلم يبْدُ مهتماً إلا بالخطر المباشر الذي كان هؤلاء الرجال ينطوون عليه بالنسبة إلى البريطانيين.

بعد البداية الصعبة ما لبثتْ علاقتُنا، دانييل وأنا، أن أصبحت جيدة. أحياناً كنا نخرج معاً لاحتساء كأس أو تناول وجبة. كان دائم اللطف والتهذيب معي؛

مرة، أقدّم حتى على مواساتي حين نشب شجار بيني وبين فاطمة. غير أني كنت أقول له الشيء نفسه كل ما التقينا: 'اسمع يا دانييل، أحس كما لو كنت لا أفعل أي شيء هنا في إنجلترا. لا أشعر بأنني ذو فائدة.'

كان يرد 'بالطبع أنت ذو جدوى.' كان يضيف إن الأجهزة كانت تراكم جميع أنواع المعلومات الاستخباراتية المختلفة بفضلي أنا. غير أن الأمر لم يبدُ كذلك بالنسبة إليّ في أي وقت. لم يقم هو أو جيل بإشعاري عن المكان الذي كانت المعلومات التي كنت أوفرها تحتله في الصورة الأكبر.

ذات يوم، نطقت بالحقيقة أخيراً. لفظت الجوهرة أو البحصة قائلاً: 'أعتقد يا دانييل أن هناك أشياء كثيرة أخرى أستطيع أن أفعلها. أما ونحن في هذا الوضع، ليس ثمة أي عمل نقوم به.'

نظر دانييل إلى الطاولة وهز برأسه. قال: 'أنت على حق. نعم أنت على حق.'

بالطبع، ثمة كانت نجاحات، أيضاً. كنت أتفقّد صندوق البريد في ساحة الطرف الأغر مرة في الأسبوع، وجدته واصلاً في إحدى المرات: طرد من جامعة بيشاور. فتحت المغلف، فوجئت إذ رأيت دفتر ملاحظاتي من دارونتا، وفيه جميع المعادلات والتعليمات الخاصة بصنع القنابل والعبوات الناسفة.

لدى صعودي إلى الحافلة عائداً إلى البيت ذلك اليوم، كنت منتشياً. كان هذا شيئاً كبيراً. لم تكن المعلومات عن المتفجرات وحدها هي التي جعلت الدفتر بالغ الأهمية، ثمة كانت جملة الملاحظات التي كان عبد الكريم قد خربشها في الهوامش. طالما دأب جيل على سؤالي عن عبد الكريم منذ عودتي من أفغانستان، وكنت أعرف أن جيل كان شديد الرغبة في الحصول على الدفتر ليتمكن من الاهتداء إلى أنموذج يمثل خط عبد الكريم.

عندما التقيت دانييل وجيل في اليوم التالي، لم يستطيعا أن يكفا عن الابتسام. كنت قد قلت لهما غير مرة إن الدفتر كان سيصل، إلا أنني لا أعتقد أنهما كانا يصدِّقانني مئة بالمئة، إلى أن أصبح الدفتر فعلاً أمامها.

جوامع موسكو كانت مراتع للجواسيس. كنت أعرف هذه الحقيقة لأن دانييل وجيل نادراً ما كانا يبدوان متفاجئين بالمعلومات التي كنت أجلبها لهما من فينزبوري بارك. لم يؤد هذا إلا إلى مضاعفة خيبتي. لماذا كانا يريدانني أن أتجسس على أبي حمزة إذا كان لديهما آخرون يفعلون ذلك سلفاً؟

على الدوام كنت خارج الأشياء في لندن، وكان الأمر صعباً بالنسبة إلي. في بروكسل، كنت في مركز القلب من عمليات الجماعة الإسلامية المسلحة؛ كنت أستطيع أن أقدم إلى جيل ما لم يكن غيري قادراً على تقديمه. وبطبيعة الحال كان هذا أكثر صواباً في أفغانستان. أما في لندن فلم أكن سوى واحد من عدد كبير من الناس المراقبين منتظرين حصول شيء - أي شيء.

في أحد الأيام بالغت في التحدي. حين سألني دانييل عما إذا كنت قد رأيت أي شخص مثير للريبة في فينزبوري بارك ذلك الأسبوع، قلت له إنني كنت قد رأيت رجلاً من الواضح أنه يعمل للام آي - 5 (MI5). بدا دانييل مصعوقاً. 'وما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟' قال مطالباً.

صارحته. كان الأمر متعذر التفسير. لم يكن هناك سوى دلائل صغيرة: التوتر في وجهه، حركات عينيه، الترددات الصغيرة في خطوه.

ركز دانييل نظره عليَّ بحدة. 'ما شكل هذا الرجل؟'

'لستَ بحاجة لأن أصفه لك،' قلت مبتسماً.

أخذ دانييل نفساً عميقاً. أستطيع أن أقول إنه كان غاضباً. قرّب وجهه من وجهي، وقال: 'لا تلعب هذه الألاعيب معي. قل لي ما شكله. فوراً.'

'لا أستطيع ذلك فوراً. سيتعين علي أن أعود لألقي نظرة عليه. فأنا أرى مئات الوجوه في كل أسبوع.'

عرفت أن دانييل لم يقتنع على الإطلاق، غير أنه لم يكن قادراً على فعل أي شيء. قال: 'حسناً، أريدك أن تركز على هذا الرجل وتعود الأسبوع التالي مصطحباً وصفاً تفصيلياً.'

يوم الجمعة التالي اخترت أكثر أعضاء الجمهور براءةً من حيث المظهر، وقد كان مهاجراً مغربياً من الواضح أن لا علاقة له بالإسلام المتطرف. حين وصفته لدانييل شعر الأخير بقدرٍ كبير من الارتياح.

لم أكن أعرف هويات الجواسيس الناشطين في فينزبوري بارك؛ إلا أنني كنت أعرف أنهم موجودون. وكنت أريد إفهام دانييل وجيل أنهما لم يكونا قادرَيْن على خداعي.

## اليمن

بعد أشهري القليلة الأولى في لندن، بدأنا: دانييل، جيل وأنا، نجتمع في شقق بدلاً من الفنادق. ثمة كانت شقق مختلفة كثيرة كنا نتناوب عليها. إحداها كانت قريبة من إلَفَنْتْ آند كاسل. ثانية على ضفة ريجنتس بارك، ثالثة في مركز لندن. جميع الشقق كانت مفروشة بأثاث بديع، ولكنها مغفلة تماماً. أحياناً فقط كنت أرى قلم أحمر شفاه أو زجاجة عطر ما بعد الحلاقة في الحمام.

ذات يوم، وصلت لأجد شخصاً ثالثاً في الشقة مع دانييل وجيل. كان صغير السن، لا أكثر من خمس وعشرين سنة. قَدَّمَه جيل باسم ألكساندر. ثم شرح لي أن ألكساندر هذا كان سيحل محله في الاجتماعات من الآن فصاعداً. فوجئت؛ كنت قد عملت مع جيل لسنواتٍ طويلة ولم يكن قد خطر لي أنه كان سيتوقف يوماً عن إدارتي. في البدء بدا ألكساندر خجولاً، متحفظاً. عَزَوتُ الأمر لصغر سنه وحداثته في الوظيفة.

بعد بضعة أسابيع، رحل دانييل أيضاً. كان بديلُه رجلاً متوسط العمر يُدعى مارك. ومارك هذا كان هادئاً ولكن ليس بطريقة ألكساندر نفسها. فمارك كان أكبر سناً، وبدا مصقولاً. جاء دانييل ومارك إلى الاجتماعات معاً لبضعة أسابيع قبل أن يتولى مارك المهمة إلى أجل غير مسمى.

بعد اجتماعه الأخير معي، دعانا دانييل جميعاً - أنا، مارك، جيل، وألكساندر - إلى عشاء فاخر جداً في مقهى النهر (الريفر كافيه River Café). جاء مارك مصطحباً شخصاً آخر في ذلك المساء، امرأة صغيرة جداً من حيث السن تدعى بني. عَرَّفَ كلاً منا على الآخر وقال لي إن بني تعمل معه وإنهما، كليهما، كانا سيتقاسمان المسؤولية عني.

في غضون أسابيع قليلة، كنت قد التقيت ثلاثة مسؤولين جدد وفقدت اثنين من القدامى. لاحقاً، اكتشفت السبب على ما أعتقد: كنت قد نُقلت من الام آي 6 (MI6) المسؤول عن الأمن البريطاني دولياً، إلى الام آي 5 (MI5). الذي يضطلع بمهمة متابعة قضايا الأمن الداخلي. كنت لا أزال جاسوساً فرنسياً، غير أن البريطانيين كانوا يزيدون من تحكمهم بقضيتي، لعل هذا هو السبب الكامن وراء رحيل جيل أيضاً.

كانت تلك سهرة رائعة في مقهى النهر. تأثرت بلفتة دانييل الكريمة التي تجلَّتْ باختيار مثل هذا المطعم الجميل. أعتقد أن تلك كانت طريقته في التعبير عن احترامه لي. وفيما نحن جالسون مستمتعين بالنظر إلى التيمز غارقين في الكلام والضحك، شعرت بالفرح للمرة الأولى منذ أشهر. كان كُلُّ التوتر - بيني وبين دانييل، بيني وبين جيل، بين جيل ودانييل - قد تلاشى.

قبل أن يغادر، أخذني دانييل جانباً ليودعني. شكرَني على عملي ثم مد يده. قال: "آسف للانتهاء. كان العمل معك ممتعاً جداً."

ممتعاً. تأملت ما كان قد نطق به وأنا أصافحه للمرة الأخيرة. بدت المتعة كلمة غريبة لوصف تعاوننا المؤسساتي. غير أنني كنت واثقاً من أن دانييل أراد، بصدق، أن يقول كلاماً ودياً.

لم يطرأ أي تغيير ذي شأن مع التحاق مارك، بني، وألكساندر بالركب. كنت أقوم بالعمل نفسه: أذهب إلى فينزبوري بارك، أعاين الصور، أذهب إلى فينزبوري بارك، أعاين الصور.

أما فينزبوري بارك فكان قد تغير كثيراً خلال الأشهر القليلة التي انقضت على زيارتي الأولى. كان الجمهور قد بات مؤلفاً، على نحوٍ شبه كلي، من الشباب، من الحانقين الساخطين. كان الحرس القديم قد غاب كلياً تقريباً. وكان ثمة أعداد كبيرة من الزبائن الجدد. اثنتان من غرف الطبقة الأرضية من الجامع كانتا قد حُولتا إلى مهجعين. حقيقة لم يكن يعرفها إلا القليل جداً، غير أن بابَيْ هاتين الغرفتين كانا أحياناً يُتركان مواربَيْن قليلاً فأجدهما كذلك في زياراتي المسائية. وعندما نظرت إلى الداخل في إحدى المرات رأيت أكياس النوم مفروشة على الأرض.

ظل أبو حمزة يُرغي ويُزيد كما كان قد درج على أن يفعل دائماً، غير أنه كان قد غَيَّرَ تركيزه قليلاً. كانت الجزائر قد أصبحت موضوعاً بالغ الحدة، حتى في فينزبوري بارك. فمذابح الجماعة الإسلامية المسلحة كانت أكبر وأكثر دموية مع كل شهر جديد. أحياناً كنت أسمع أناساً يتجادلون حول الأمر همساً.

وعلى أي حال فإن الجماعة الإسلامية المسلحة والجزائر لم تكونا موضوع أبي حمزة الرئيسي. فأبو حمزة هذا كان مهووساً باليمن. كان يؤمن بأن الثورة الإسلامية الكوكبية كانت ستندلع من اليمن. دائماً كان يقول: 'ستَخْرُجُ الثورة الإسلامية من رحم عدن.' إذا ما جرى اعتماد الشريعة في اليمن فإن سائر أنظمة الحكم العلمانية كانت ستتهاوى مثل حجارة الدومينو.

حاولت أن أشرح هذا كله لمارك وألكساندر. أبْديا نوعاً من العجز عن فهم سبب تعلق أبي حمزة، وهو مصري، الشديد باليمن. حدثتهما عن المهدي، المخلّص العظيم عند المسلمين، الذي كان سيقلب العالم إلى مجتمع إسلامي كامل الأوصاف، مثالي، قبل يوم القيامة، يوم البعث. ثمة آيات تعلن مجيء المهدي. وإحدى هذه الآيات: النار الكبرى في عدن. لم يكن أبو حمزة صاحب طموح سياسي فقط، كان ذا نظرة قيامية، رؤيوية ملغزة أيضاً.

بدا ألكساندر شديد الاهتمام بشرحي، أكثر من مارك بكثير. كان مارك أكثر حصافة بما لا يقاس من دانييل - كان ذلك واضحاً من البداية - غير أن معرفته بالإسلام، مثل نظيرتها عند دانييل، كانت ضحلة جداً. كان مُخيِّباً لي حين كان مارك يعود التفافاً ليطرح ذلك السؤال الأبدي المتمثل بـ: 'ولكن هل قال شيئاً، أي شيء، عن هجمات وشيكة في إنجلترا؟' بعد أن أكون قد بذلت جهداً كبيراً وأنا أشرح هذه الأفكار المهمة.

خلال هذه الأشهر وجدتني مقترباً أكثر من خالد، وغائصاً أعمق في حلقة أبي حمزة. غالباً، كنت أذهب إلى فينزبوري بارك في الأماسي لحضور المناقشات الدينية مع جماعة أصغر. أحياناً، كان أبو حمزة يعرض علينا أشرطة فيديو دعائية من الجزائر.

ذات يوم، قام خالد بتقديم واحدنا للآخر. قال لأبي حمزة إنني كنت في معسكرات التدريب قال أبو حمزة: 'ما شاء الله! ما شاء الله!' وهو يمعن النظر فيَّ بعينه الوحيدة، ثم أضاف: 'هل تستطيع أن تقابلني في المكتب بعد الصلاة؟'

'بالطبع' قلت.

بعد انتهاء الصلاة وقفت خارج المكتب الصغير على الطبقة الأولى. بعد قليل، أطل أبو حمزة مع أحد الصبية برفقته. أشار بكلابه ففتح الصبي الباب له. جَلسْنا على الأرض وطلب أبو حمزة من الصبي أن يعد لنا شاياً.

سألني أبو حمزة عن المعسكرات التي كنت فيها، وأخبرته عنها. بدا شديد الاهتمام. ثم مِلْت إلى الأمام قليلاً وقلت بصوت تآمري: 'التقيت شخصاً يعرفك.'

رفع أبو حمزة حاجبيه قليلاً.

قلت له: 'تدربت مع أسد الله. حدثني عن النيتروغليسرين وعن كيفية فقدك ليديك.'

أبعد أبو حمزة نظره وهمس، وهو لا يزال يتحاشى النظر إليّ: 'أرجوك أيها الأخ! لا تُطْلع أحداً على تلك القصة.'

وَعَدْتُه بألا أفعل مطمئناً، فبدا منفرجاً. ما لبث الصبي أن عاد مع الشاي. جلسنا بضع لحظات ثم قام أبو حمزة معلناً انتهاء اللقاء.

لحظة مغادرتي، قال موجهاً كلامه إلي: 'نحمد الله الذي أرسلك إلينا. قد نحتاج مساعدتك ومعارفك ذات يوم.'

لم يكن دانييل وجيل قد قالا أي شيء إضافي عن دفتر المتفجرات قبل رحيلهما. وكنت شديد الرغبة في معرفة ما كان هذا الدفتر قد آل إليه. وهكذا أقدمت أخيراً، بعد شهرين من الزمن، على سؤال مارك.

قال: 'سيتعين عليك أن تسأل ألكساندر. مازال عند الفرنسيين.'

أحسست بشيء ولو قليل من المرارة في نبرة صوته. من البداية، كنت قد أدركت أن العلاقة بين الأجهزة الفرنسية ونظيرتها البريطانية لم تكن مريحة تماماً. وقبل رحيله، كان دانييل قد أخبرني بأن البلدين لم يكن قد سبق لهما قط أن أدارا عميلاً سوية بهذه الطريقة. من الواضح أن العملية كانت لا تزال تشكو من بعض التجاعيد. مضى عدد آخر من الأشهر قبل أن يبادر الفرنسيون إلى تسليم الدفتر للبريطانيين.

لاحقاً، أبلغني مارك بأن الأجهزة البريطانية كانت قد استعرضت جميع المعادلات والصيغ واختبرت كلاً منها. أفاد بأن الخبراء صُعقوا بمدى تعقيد وحذلقة بعض المعادلات. ثم أضاف: 'أتعلم أن اختصاصيينا قالوا لي إنهم تعلموا عدداً من الأشياء من ذلك الدفتر.'

## مرض فقدان الذاكرة

مع انقضاء الأشهر، كانت ثمة سلسلة من حلقات الخيبة المتراصفة مع حلقات النجاح. بمساعدة خالد وسمير كنت أزداد قرباً من أبي حمزة. كنا نتسامر في مكتبه بعد الصلاة أيام الجمع، وكنت سأراقب قيامه، هو وحاشيته، بعدِّ أكوام الأوراق النقدية التي كانوا قد حصّلوها من الزكاة. لم أصدّق قط أن الأموال كانت تذهب إلى الفقراء.

مرة طلب مني أبو حمزة خدمة له. أراد مني أن أبتاع له هاتفاً إضافياً وجهاز فاكس لمكتبه. كانت الأجهزة (الأمنية) أكثر من مستعدة لتلبية الطلب عن طيب خاطر.

الجميع - مارك، ألكساندر، بني - كانوا يلحون في مطالبتي بالاقتراب أكثر من خالد. دعاني مرة إلى بيته، والجميع رأوا أن علي أن ادعوه إلى بيتي بالمقابل. رفضت الرأي بحزم ووضوح. لم أكن أريده أن يعرف مكان إقامتي.

إلا أننا بقينا قادرين على استجرار نهر من المعلومات من خالد على أي حال. في أحد الأيام ضاع منه هاتفه الخليوي وطلب مني إعارته هاتفي. أعرته الهاتف الذي كان دانييل قد زودني به، وأجرى اتصالاً مع الجزائر. استعاره عدداً من المرات بعد ذلك، واستخدمه لإجراء الاتصالات مع الجزائر وسائر أرجاء القارة الأوروبية. كانت الأجهزة قادرة على تسجيلها جميعاً.

ذلك هو الحد الذي كنت أستطيع أن أصل إليه مع خالد. لم يكن الأمر مقتصراً على خوفي أنا، بل كان يتجاوزه إلى عدم استعداد الأجهزة لتمكيني من

الانخراط في أشياء من شأنها أن تجعلني قادراً على الوصول الفعلي. قال لي خالد في أحد الأيام أن أبا حمزة كان قد نظم دورة تدريبية قتالية لعدد قليل من الإخوان، واقترح مشاركتي في التدريب لعرض بعض المهارات التي كنت قد اكتسبتها في المعسكرات.

حين أطلعت مارك وألكساندر على اقتراح خالد، امتقع لون وجهيهما. ثم منعاني منعاً باتاً من الانخراط في أي عمليات تدريبية جسدية مع رجال من فينزبوري بارك. كان محظّراً كلياً على أي عميل أن يتقاسم المهارات مع إرهابيين. وأوصياني بالاعتذار متحججاً بالانشغال بأمور أخرى إذا ما عاود خالد الطلب.

ذات يوم جمعة، صادفت خالداً خارج فينزبوري بارك، لم يكن سمير معه. حين سألته عنه، بدا منزعجاً. قال لي إن سميراً كان قد عثر على عمل وانتقل إلى سْوِنْدُون. كان خالد غاضباً لأن سميراً كان قد اختار حياة الراحة، بدلاً من متابعة الجهاد في سبيل الأمة الإسلامية.

حين أطلعت مارك على ما حصل مع سمير، ابتسم. ثم سألني: 'هل كنت تعلم أن سميراً شاذ جنسياً؟' التمعت ومضة في عينه. أضاف: 'ليس الإسلام كثير التعاطف مع الشاذين جنسياً.'

في تلك اللحظة وذلك المكان أيقنت أن الأجهزة كانت قد ابتزت سميراً عبر التهديد بالفضح، فجندته للعمل معها.

ذات يوم جمعة، طلب مني مارك وألكساندر ألا أذهب إلى فينزبوري بارك. دون زيادة؛ اكتفيا بنصحي بعدم الذهاب. وبعد يومين، قال خالد إن الشرطة كانت قد داهمت عدداً من المنازل في لندن واعتقلت بعض الإخوان. بعد ذلك لم أسمع أي مزيد عن الأمر.

## أفغانستان

كان قد مضى على وجودي في لندن أكثر من سنة، كنت شاعراً بالملل، غارقاً في بحر من السأم. كنت أفعل الشيء نفسه أسبوعاً بعد أسبوع ـ فينزبوري بارك، صور، فينزبوري بارك ـ وقد بدت العملية دونما أي هدف بالمطلق. وكنت واقعاً في حب فاطمة، إلا أنني لم أكن أراها إلا نادراً لأنها كانت مقيمة في ألمانيا.

بدأت أشعر بالقلق إزاء احتمال استمرار حياتي على هذا النحو إلى الأبد إذا لم أبادر إلى وضع حدٍّ لها، فبادرت، خلال أحد لقاءاتي مع مارك وألكساندر، إلى الإلحاح على مناقشة تقاعدي. كلاهما قالا إنهما لم يكونا صاحبي قرار في الأمر، وطمأناني إلى أن أحداً كان سيتصل بي لبحث الموضوع قلت لهما إني كنت سأبقى متوقفاً عن العمل إلى أن أتكلم مع المسؤول كائناً من يكون.

بعد ثلاثة أيام، اتصل بي جيل. لم أكن قد تحدثت معه منذ عشاء مقهى النهر. رتب موعداً للقاء معي ومع مارك في لندن بعد بضعة أيام. في اللقاء سألني جيل عن طلبي، وقلت له إنني كنت لا أزال أريد الأشياء نفسها التي كان قد سبق لي أن طلبتها خلال اجتماعنا الأول في بروكسل: هوية جديدة، جواز سفر، ومساعدة على إيجاد وظيفة. قلت إنني راغب في الزواج ووضع حد لجاسوسيتي.

تبادل جيل ومارك النظرات ثم بدأ جيل بالكلام. قال: 'نحن لم نفاتحك بعد حول الأمر، إلا أننا كنا نفكر بإعادتك إلى أفغانستان.'

أفغانستان. أعجبتني الفكرة. كان من شأن العملية أن تكون أكثر إثارة مما كنت أقوم به الآن. من المحتمل أيضاً أن أُزوَّد هذه المرة بهدف معقول ومقبول. قد أتمكن فعلاً من تحقيق شيء.

سألت: 'متى؟'

obeikandl.com

لاحظت تقاطع نظرات جيل ومارك للحظات وجيزة. قال جيل: 'ربما العام القادم؟'

في تلك اللحظة أيقنت أن الرحلة إلى أفغانستان لم تكن مرشحة لأن تتحقق أبداً.

كان لي لقاء آخر مع جيل بعد ثلاثة أيام، في باريس، لمزيد من الحديث عن تقاعدي.

قلتله: 'سأبقى في أفغانستان سنة. لا أكثر. وحين أعود، أريد أن أتقاعد وأتزوج فاطمة وأعيش معها في ألمانيا.'

بقي جيل صامتاً عدداً من الثواني، ثم تكلم قائلاً:

'لستُ صاحب قرار حول ذلك. غير أني أريدك أن تناقش كل هذا مع رئيسي غداً.'

لم يكن قد سبق لجيل أن أتى على ذكر رئيسه (معلِّمه) من قبل.

قلت له: 'أنا لا أريد أن أتحدث مع معلمك. أريد أن أتحدث معك أنت. أنت من وعد برعايتي، من البداية، عندما أتيت إليك في بروكسل للمرة الأولى.'

تجنب جيل النظر إليّ - اكتفى بهز رأسه. من الواضح أنه، هو الآخر، لم يكن سعيداً. وقفنا كلانا تصافحنا وتوادعنا.

عندها، لم يخطر ببالي أن يكون هذا هو الحوار الأخير لي مع جيل.

'ثمة أخ يرغب في مقابلتك.'

الكلمات فاجأتني. كنت مع خالد في فينزبوري بارك، وكانت صلاة الجمعة قد انتهت للتو.

سألت: 'من؟' ونبضات قلبي بدأت تتسارع. أرعبني احتمال أن يكون أحداً من بروكسل، شخصاً مطلعاً على ما كان قد سبق لي أن فعلته.

تابع يقول: 'شخص تعرفه. شخص من الجبال. من معسكرات التدريب.' تباطأت نبضات قلبي قليلاً، غير أني بقيت قلقاً، مثلما كان يحصل كلما بدا عالماي موشكين على التصادم. طلب خالد مني أن أذهب إلى الريشات الأربع يوم الجمعة التالي. كانا سينتظرانني هناك.

عندما أبلغت المسؤولين عني، أثرت اهتمامهم الشديد. طلبا مني إطالة اللقاء أطول مدة ممكنة، والخروج مع العنصر الجديد إلى خارج المبنى ليتمكنوا من التقاط صور واضحة.

عندما وصلت إلى الريشات الأربع، لم أستطع الاهتداء إلى خالد. جلست قريباً من الجدار الخلفي للقاعة وأديت الصلاة. حين نهضت لاحظت خالداً واقفاً مع عبد الحق، ذلك المغربي من خالدان. ذلك الذي كان يعيش مع أخته في لندن. ذلك الذي استعمل الجي بي اس GPS أولاً.

كان غريباً جداً أن يُرى هنا، في باحة مزدحمة من باحات لندن. قمت بعودة سريعة إلى حياتي في المعسكرات: مذاق الطعام، أصوات إطلاق الرصاص، الأرض القاسية، الباردة التي كنت أنام عليها ليلياً. اقتربت وصافحت عبد الحق. ابتعد خالد تاركاً إيانا وحدنا نحن الاثنين.

قال بما يشبه الهمس: 'يجب ألا يرانا أحد معاً.' ثم طلب مني أن التقيه يوم الجمعة التالي في أثناء صلاة الجمعة في ريجنتس بارك. وافقت.

عندما التقيت بني وألكساندر بعد ظهر ذلك اليوم، وجدتهما شديدي الاهتمام والحرص. كانا قد التقطا مئات الصور لعبد الحق فيما كنا خارجين من الريشات الأربع، وراغبين في التقاط المزيد في ريجنتس بارك.

أمضيت مع عبد الحق ساعتين كاملتين يوم الجمعة التالي. اقتعدنا أحد مقاعد الحديقة ونقل إلي تحيات كل من ابن الشيخ وأبي بكر. قال لي إن أسد الله كان قد تعرض لإصابة بليغة في إحدى التجارب التفجيرية وفقد إحدى يديه.

أفاد عبد الحق بأنه كان في لندن منذ ستة أسابيع، وكان عائداً إلى الباكستان في غضون بضعة أيام. سألني عما إذا كنت أنا أيضاً أخطط للعودة إلى المعسكرات.

قلت له: 'بلى. ربما خلال عام أو نحوه.'

كان عبد الحق الشخص الوحيد من المعسكرات الذي رأيته في لندن. غير أنني اطلعت على المزيد من الأخبار عن أبي بكر من ألكساندر. جاء الأخير في أحد الأيام إلى اجتماعنا وبادر إلى رمي إحدى صور أبي بكر على الطاولة أمامي. سأل: 'هل تعرف صاحب الصورة؟' كان واضح الانفعال.

قلت: 'إنه أبو بكر.' كنت متلهفاً لمعرفة المزيد.

اتسعت ابتسامة ألكساندر فصارت جسراً بين أذنيه وهو يقول: 'صحيح! للتو ألقينا عليه القبض في الأردن.'

ذلك هو آخر شيء سمعته عن أبي بكر منذ ذلك الوقت.

## الجماعة الإسلامية المسلحة (الجيا GIA)

زاد سعار الحرب الأهلية في الجزائر خلال صيف 1997. وردت تقارير جديدة في الصحف عن سلاسل من المذابح على نحو يومي. كانت أصداء الصراع تتردد في فينزبوري بارك. حتى بعض أولئك الذين كانوا قد هجروا الرِّيَش الأربع بسبب تأييد أبي حمزة للجماعة الإسلامية المسلحة بدؤوا

يتعرضون للاستبعاد. الخطابات التي كانت تتم همساً فيما مضى راحت تنطلق بأصوات عالية وعلى الملأ.

مع حلول شهر آب/أغسطس، كانت المذابح قد بلغت حدوداً جديدة من الضخامة. وأواخر الشهر، قتلت الجماعة مئات الأشخاص في هجوم شنته على سيدي موسى، خارج مدينة الجزائر. وصل عناصر الجماعة في ساعة متأخرة من الليل وواصلوا عمليات الذبح حتى الصباح. أحرقوا جثثاً وتركوا وراءهم رؤوساً مقطوعة مبعثرة في أرجاء القرية. وعند الرحيل، أخذوا معهم عدداً من الفتيات سبايا.

بدأت الشكوك تراود حتى خالداً. ظلَّتْ الشائعات تتطاير زاعمة أن الجيش الجزائري كان قد اقترف المذابح من أجل تعبئة الناس ضد الجماعة، غير أن خالداً كان يجد قدراً مطرد التزايد من الصعوبة في تصديق مثل هذه الشائعات. ثم ما لبث أن أبلغني بأنه كان قد علم أن الجماعة كانت قد باتت مخترقة من المخابرات، من جهاز الأمن السري. أفاد بأن الجماعة قد تعرضت للإفساد، وقد قرر هو سحب تأييده لها.

كان أبو حمزة متحلياً بما يكفي من الحصافة لرؤية ما كان حاصلاً. وعلى الرغم من أنه كان قد دأب على حشد أتباعه باسم الجماعة الإسلامية المسلحة ولصالحها في وقتٍ سابق من السنة، ما لبث أن أصبح الآن كثير التردد والتجريبية. صار كلامه عن الجزائر في الخطب والمواعظ أقل فأقل على نحوٍ مطرد.

ذات ليلة، قام أبو حمزة بدعوة مجموعة صغيرة منا إلى مكتبه للتحدث عن الجماعة الإسلامية المسلحة. طلب من الجميع الجلوس ثم رفع سماعة الهاتف وأدار رقماً. أخيراً جاء صوت عبر الخط. ثم وضع أبو حمزة السماعة جانباً.

وشرح لنا أن الصوت عائد لأحد قادة الجماعة الإسلامية المسلحة الميدانيين في الجزائر.

كان أبو حمزة عنيفاً مع القائد تلك الليلة، وطلب منه بإلحاح تفسير أعمال الجماعة. كان القائد يتكلم عبر هاتف خليوي وكان من الصعب سماع كل ما كان يقوله، غير أنني فهمت ما فيه الكفاية. أفاد بأن القرويين كانوا من مؤيدي جبهة الإنقاذ الإسلامية. كانت الجماعة هي الممثلة الحقيقية للإسلام. وبالتالي فإن القرويين كانوا قد كفوا عن أن يكونوا مسلمين.

وبعد بضعة أسابيع، دانَ أبو حمزة الجماعة علناً، تماماً كما كان أبو قتادة قد فعل قبل عددٍ غير قليل من الأشهر. ومثل أبي قتادة، أعلن عن اعتزامه التوقف عن دعم الأنصار.

أكثر من أي شيء آخر، كان هذا الحادث قد برهن لي أن أبا حمزة كان دجالاً. كانت أهدافه تميل حيث تميل الرياح. كان بحاجة إلى الجماعة لإغواء أتباعها وإبعادهم عن أبي قتادة. أما الآن فقد بات يرى أن من شأنه أن يخسر أكثر مما يربح عبر الاستمرار في تأييد الجماعة كان جوهر القضية بالنسبة إلى أبي حمزة متمثلاً بالزكاة، بالأموال التي كان يجمعها كل أسبوع بعد صلاة الجمعة. تزايُد أعداد المصلين كان يعني تعاظم المبالغ النقدية المراكمة.

كنت شبه متأكد من الجهة التي كانت تحصل على المال. لم يسبق للجزائر أن كانت ذات أهمية بالنسبة إلى أبي حمزة. فهذا الأخير لم يكن يهتم إلا باليمن.

كان البريطانيون سينتظرون أعواماً قبل الانقضاض على أبي حمزة. لم يتم اعتقاله حتى عام 2004، وفقط لأن الأمريكيين طلبوا تسليمه إليهم. كان أبو حمزة دائباً على العمل لإقامة معسكر للتدريب في أوريغون.

كانت مشكلات أبي حمزة بادئة منذ عام 1998 حين ارتبط اسمه باختطاف ستة عشر سائحاً غربياً في اليمن. مقابل إطلاق سراح الرهائن، قيل أن المختطفين طالبوا بإطلاق سراح خمسة بريطانيين محتجزين في اليمن منذ بضعة أسابيع بتهمة السعي لشن هجمات إرهابية في البلاد. أحد هؤلاء البريطانيين الخمسة كان نجل أبي حمزة.

أوائل 2006 دين أبو حمزة في بريطانيا على جرائم منها التحريض على القتل وإثارة الأحقاد العنصرية. حُكم عليه بالسجن مدة سبع سنوات. مازالت أمريكا تأمل في تسلمه تمهيداً لمحاكمته في الولايات المتحدة أيضاً. وبين أشياء أخرى، يعكف مكتب التحقيقات الاتحادي (الاف بي آي FBI) على تقصي حقيقة المزاعم القائلة بأن أبا حمزة قد حَوَّلَ مبالغ مالية إلى صديقه وأستاذه أبي خبب المصري، مدربه السابق على المتفجرات في دارونتا.

أبو حمزة وأبو قتادة كانا، كلاهما، رئيسين لتحرير الأنصار في لندن. إلا أن الحقيقة هي وجود، أقله، رئيس ثالث لتحرير هذه النشرة أيضاً. كان اسم الأخير رشيد رمضا. جرى اعتقاله في لندن آخر سنة 1995. اتهمه الفرنسيون بكونه أحد مدبري تفجيرات مترو باريس في الصيف السابق، كان الفرنسيون شديدي الإلحاح على المطالبة به، غير أن البريطانيين ظلوا يماطلون عقداً كاملاً من الزمن قبل تسليمه. تسبب التأخير الطويل باحتكاك شديد بين أجهزة الاستخبارات الفرنسية ونظيرتها البريطانية. كان الفرنسيون محبطين كثيراً ومستائين من البريطانيين إلى درجة أنهم فكروا في إحدى المراحل باختطاف أبي حمزة من الشارع وإعادته إلى فرنسا لمحاكمته. كان الفرنسيون متأكدين من أن البريطانيين لم يكونوا مستعدين لفعل ذلك ذاتياً في أي من الأوقات.

أخيراً جرى ترحيل رشيد رمضا إلى فرنسا بداية عام 2006. وفي آذار/مارس 2006 دين بالتآمر الإجرامي في تفجيرات مترو باريس. وقد حُكم

بالسجن لمدة عشر سنوات وقد يحاكم بمزيد من تهم القتل ومحاولات القتل، كما فيما يخص تلك الهجمات.

كان رشيد رمضا يعمل في أوروبا باسم "إلياس" المستعار. وهو الاسم الذي كنت قد سمعته مرات كثيرة في بروكسل متردداً على شفاه كل من أمين وياسين وطارق الرجل الذي كنت سأكتشف لاحقاً أنه علي توش.

## كأس العالم

في أحد الأيام، جاء ألكساندر إلى اجتماعنا ومعه صورة وحيدة. لم يكن هذا مألوفاً؛ درج هو ومارك على إغراقي، عموماً، بأكوام من الصور، كل مرة. وضع الصورة على الطاولة فعاينتُها باهتمام. بدا صاحب الصورة مألوفاً، غير أنني لم أستطع الكشف عن السبب.

قال ألكساندر: 'إنه عبد الكريم من المعسكرات.'

'لا.' حركت رأسي. كنت شبه متأكد من أنها لم تكن له. صحيح أن لصاحب الصورة بعض الملامح المشتركة مع عبد الكريم. ولكن الرجل لم يكن هو نفسه.

في الأسبوع التالي جاء ألكساندر مصطحباً صورة مختلفة.

قلت: 'ذلك هو عبد الكريم.' هذه المرة، تعرفت على صاحب الصورة مباشرة، حتى قبل أن يقوم ألكساندر بوضع الصورة على الطاولة.

قال: 'صحيح.' انتشرت ابتسامة عريضة على وجهه. 'أمسكنا به. اسمه فريد ملوك.'

ذُهلت، وانتظرت مزيداً من الإيضاح من ألكساندر.

قال: 'ساعَدْتَنا كثيراً بشأن هذا.' كان ذلك كل شيء. لم نتكلم عن عبد الكريم بعد ذلك مطلقاً.

اعتُقل فريد ملوك أوائل آذار/مارس 1998، خلال سلسلة من المداهمات حول بروكسل بهدف تفكيك إحدى خلايا الجماعة الإسلامية المسلحة. منذ عام 1995، كان ملوك على القائمة الفرنسية للمجرمين المطلوبين للعدالة. دين غيابياً بفرنسا في 1997 بوصفه ذا علاقة بتفجيرات مترو باريس.

لم يستسلم فريد ملوك حين دُوهم منزلُه. بادر، بدلاً من ذلك، إلى إطلاق النار على الشرطة، صمد مدة زادت على اثنتي عشرة ساعة قبل أن تتمكن الشرطة، أخيراً، من اعتقاله. تحدثت الصحف عن قيام الأمن بتفتيش المنزل والعثور على جوازات سفر مزورة، صواعق ومواد أخرى مستخدمة لصنع المتفجرات. قيل إن فريد ملوك والآخرين الذين أوقفوا معه كانوا يخططون لهجوم على دَوْري مباريات كأس العالم لكرة القدم بباريس ذلك الصيف.

لاحقاً في الربيع، قامت قوات الأمن الأوروبية بمداهمة خلايا عائدة للجماعة الإسلامية المسلحة في طول القارة وعرضها. ثمة كانت اعتقالات - بلغ المجموع نحو مئة - في بلجيكا، فرنسا ألمانيا، إيطاليا، وسويسرا، قيل إن المداهمات حالت دون هجوم كبير على مباريات كأس العالم.

في 1999 حُكم فريد ملوك بالسجن لمدة تسع سنوات. دين بعدد من التهم منها تخزين الأسلحة وإدارة حلقة اتجار رئيسية بجوازات السفر وتذاكر الهوية المزورة لصالح الجماعة الإسلامية المسلحة في أوروبا.

مرت مباريات كأس العالم في تلك السنة دون أي منغِّصات. تابعتُ أكثرها والسماعة على أذني. لم يسبق لي أن كنت لاعب كرة قدم جيداً في أي وقت، ولم يسبق لي أن اهتممت كثيراً بالمباريات وهي معروضة على شاشات التلفزة. غير أن فاطمة كانت شديدة الولع بكرة القدم وكنا نحب أن نشاهد المباريات معاً، وإن كانت مسافات شاسعة تفصل بيننا.

obeikandl.com

أحياناً كنا، مارك وأنا، نتحدث في السياسة. كان مارك ذكياً جداً، وكنت أستطيع أن ألمس أنه كان يحاول أن يفهم ما كان يواجهه ويتصدى له. غير أنه كان أيضاً يعاني من بقع سوداء كبيرة. أعتقد، مثلاً، أنه كان يفهم لماذا شكل الغزو السوفيتي لأفغانستان منعطفاً بالغ الأهمية بالنسبة إلى المسلمين. كان يفهم أن المجاهدين، في تلك الحالة، كانوا يقاتلون دفاعاً عن أرضهم.

إلا أنني حاولت أن أبين لمارك أن البلدان الإسلامية لم تكن عرضة لغزو الجيوش الأجنبية فقط. بل كانت تتعرض وبالقدر نفسه من الكثافة لغزو الأموال. الدعايات والأسلحة الأجنبية. جميع حكام بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ليسوا إلا دمىً غربية، وجميع حكام آسيا الوسطى ليسوا إلا دمى روسية.

قلت له: 'لن تتحرروا مما تطلقون عليه اسم الإرهاب ما لم تتقلعوا من أرضنا ومن سياستنا.'

بقي مارك بادي الارتباك، فحاولت أن أشرح له الأمر بعبارات أوضح.

قلت: 'انظروا إلى ما فعلتموه في الجزائر. للمرة الأولى شهد الجزائريون انتخاباً ديمقراطياً، وحين أدرك الغرب أن الحصيلة لن تعجبه، سارعتم إلى سد جميع الأبواب.'

اعترض مارك: 'لم يكن الخطأ خطأنا. الجيش الجزائري هو الذي قطع الطريق على تلك الانتخابات.'

سألته: 'وماذا فعلتم أنتم؟ لا شيء. لم تفعلوا شيئاً. والآن تتفاوضون معهم كما لو كانوا نظاماً شرعياً.'

طرح علي سؤال: 'وما الشيء الآخر الذي نستطيع فعله؟ لابد لنا من التفاوض مع أحدٍ ما.'

## أمين

ومن ثم وَقَعَتْ الواقعة في أحد الأيام. الأمر الذي طالما ذُبْتُ خوفاً منه على امتداد ثلاث سنوات منذ مغادرتي بروكسل حدث. أخيراً نجح تاريخي السابق في اللحاق بي. أقله اعتقدتُ أنه فعل.

كنت مغادراً فينزبوري بارك ذات ليلة ومتوجهاً نحو محطة المترو حين أوقفني ثلاثة رجال. جميعاً كانوا صغاراً في السن، في العشرين أو دونه. أحاطوا بي وقطعوا طريق تقدمي. على الفور شعرت بأنني كنت في خطر.

'السلام عليكم!' قال أحدهم. لم يكن مبتسماً، وكذلك الآخران.

'عليكم السلام!' أجبت محملقاً في بؤبؤ عينه.

حمل الرجل ورقة وهو يقول: 'يريد أمين رؤيتك.'

كاد قلبي يتوقف. أخذت الورقة وفتحتها. كانت ثمة ملاحظة مخربشة بالعربية: 'اتبع الإخوان. سيوصلونك إليّ. أمين.'

حافظت على هدوئي. ونظرت إلى عين الرجل. قلت: 'أنا لا أعرف أي شخص بهذا الاسم: أمين. أخطأتُم. يجب أن تكونوا باحثين عن شخص آخر.' أعدت الورقة إليه.

'نحن لم نخطئ. أمين كان في الجامع هذه الليلة، وكان واقفاً على مسافة بضع أقدام منك. وقد حددك لنا.'

رحت أُحرك رأسي يميناً وشمالاً: 'أنا آسف. ولكنكم تقعون في خطأ. أنا لا أعرف من يكون هذا.'

قلت ذلك ودفعتهم جانباً شاقاً طريقي إلى محطة المترو.

obeikandl.com

أحاسيسي كلها استنفرت مئة بالمئة تلك الليلة. كنت متنبهاً لكل شخص، لكل حركة من حولي. راقبت داخل المحطة. راقبت من كانوا في القطار. راقبت المارة وأنا ذاهب سيراً إلى البيت. راقبت كل شيء وكل شخص كي أتأكد من أن أحداً لم يكن يتعقبني.

ما إن دخلت البيت حتى أقفلتُ الأبواب وتمددت على السرير، غير أنني لم أستطع النوم، قمت وارتديت ملابسي من جديد وخرجت. مشيت حول كتلة المباني السكنية، ثم حول الكتلة الثانية من جميع الجهات للاطمئنان إلاّ أن أحداً لم يكن يرصدني. لم أجد شيئاً، فعدت إلى شقتي.

مستلقياً دون نوم تلك الليلة فكرت بالاحتمالات الواردة. بالطبع، كان حدسي الأول هو افتراض خروج أمين من السجن ومجيئه للعثور علي في لندن. كان سينتقم. كان سيأمر بإعدامي جزاء خيانتي.

غير أن احتمالاً آخر كان وارداً أيضاً، احتمالاً لم يكن أقل إثارة للرعب. ربما كان الرجال قد عمدوا إلى استخدام الاسم كما كنت أنا قد استخدمته مع خالد وابن الشيخ، رمزاً ذا دلالة بالنسبة إلى الأعضاء. كانوا يعرفون أنه اسم لم أكن لأتردد في الاستجابة له.

إذن، ما الذي كانوا يريدونه؟ لم أستطع أن أفكر إلا باحتمال واحد: كنت مدعواً إلى القيام بمهمة. أمضيت في لندن ما يقرب من عامين، وقد يكون الوقت قد حان. لم أكن قد تكلمت مع أبي زبيدة أو أي أحد غيره منذ نحو سنة، إلا أن هذا لم يكن يعني شيئاً. مهمتي بالنسبة إليهم كانت محصورة بالمراقبة والانتظار.

مع أي من الاحتمالين كنت أواجه مشكلة حقيقية. تقلَّبْتُ في الفراش الليل كله. كنت أغفو ثم أستيقظ بعد دقائق في حال من الذعر. لسنوات، كنت قد نجحت في الاحتفاظ بدورين شديدي الاختلاف: جاسوس ومجاهد. غير أن كل شيء كان الآن ينهار فوق رأسي. ليتني عرفت: ما العمل؟

كان مارك، ألكساندر، بني - جميعاً - غاضبين مني حين أطلعتهم على ما كان قد حصل. أرادوا أن يعرفوا لماذا لم أتبع الرجال. بالطبع، لم أستطع التفسير. اكتفيت بزعم أنني حدست بأن الأمر لم يكن آمناً. أرادوا مني أن أهتدي إلى الإخوان من جديد في فينزبوري باركوأن أجاري عرضهم.

قال مارك: 'سنزودك بعناصر أمن.'

بالطبع، كان واضحاً أن أحداً منهم لم يكن مبالياً بالمطلق بأمني أنا. لم يكن قد سبق لهم أن فعلوا. ولكن لا بأس. لم يكن ثمة أي قدرٍ من الأمن كان يستطيع أن يقنعني بصواب السير خلف أولئك الرجال.

لم أكن أعرف سوى شيء واحد: كنت بحاجة إلى الرحيل. كان لابد لي من مغادرة لندن والمسارعة إلى وضع حد لحياتي جاسوساً.

## إفريقيا

كنت شديد التوتر في الأسابيع التي أعقبت تواجهي مع الرجال الثلاثة خارج فينزبوري بارك. كنت موصولاً كل الوقت، متنبهاً لكل شيء ولأي شخص من حولي. واصلت الذهاب إلى فينزبوري بارك أيام الجمعة مع تجنبه في سائر الأيام والأوقات الأخرى؛ لم أكن أريد مصادفة أولئك الرجال مرة أخرى. كنت أيضاً أحرص على تجنب خالد قدر استطاعتي، وحين كنت ألتقيه كنت أتحفظ في الكلام.

جافاني النوم - بات الاسترخاء مستحيلاً. حتى فاطمة لم تستطع تهدئتي، لأنني لم أستطع أن أطلعها على ما كان قد حصل. لم أرد إثارة قلقها. لذا رحت أذهب إلى كوفنت غاردن كل ليلة. كنت أعرف أنني آمن في كوفنت غاردن. لم يكن من المحتمل أن يبحث عني أحد هناك، وكان ثمة حشود في كل مكان على أي حال. كنت أجلس في المقهى ساعات متواصلة، استمتع بسماع الموسيقا واحتساء

الخمر. الانقباض في صدري كان يخف قليلاً، ويصبح دوران عقلي أبطأ مما هو في باقي الأوقات. لعل هذا كان أفضل الأشياء التي كنت أستطيع أن أفعلها.

ومن ثم، في لحظة خاطفة، انقلبتْ حياتي رأساً على عقب - مرة أخرى. في السابع من شهر آب/أغسطس 1998 تعرضت السفارتان الأمريكيتان في دار السلام ونايروبي لهجومين لم يكن يفصل بينهما سوى دقائق قليلة. القتلى بالمئات؛ الجرحى بالآلاف.

تابعت تعاقب أحداث القصة ذلك الصباح على قناة السي ان ان .CNN صور الدمار تناوبت مع خبراء مزعومين حاولوا تفسير ما حدث ولماذا. طيّروا عقلي من راسي. لم يكونوا يفهمون شيئاً. دأبوا على استعمال كلمات وتعابير مختلفة، ولكنهم انتهوا، جميعاً، إلى قول الشيء نفسه: لم يحدث هذا إلا لأن المسلمين يكرهوننا.

غير أن الخبراء لم يكونوا الأكثر إزعاجاً لي. فقد تمثل أكبر أسباب إزعاجي بإحدى صور المشهد في نايروبي. قطاعات واسعة من السفارة كانت قد انهارت وكان الموقع في حالة فوضى. كان ثمة جنود أمريكيون في كل مكان، ولكنهم لم يكونوا بالزي العسكري. لم يكن أحد قد توقع حدوث هذا، وحين حدث هرع الجميع إلى الحلبة. كان الجنود يحملون بنادقهم ولكنهم كانوا لا يزالون في ملابسهم المدنية.

ثم شاهدت حدوث أمر مرعب. لم يستغرق سوى لحظة خاطفة. ثمة كان رجل أفريقي يخوض في الركام. بدا منبهراً. كان إما ضحية أو باحثاً عن واحدة. غير أن جندياً أمريكياً أبعده دفعاً. استطعت رؤية الجندي وهو يصرخ معنِّفاً الرجل ومهدِّداً إياه. على الرغم من أن السفارة كانت قد طارت، فإن الأمريكي كان لا يزال يتولى حراستها.

مرضت من الصورة. مئات الأفارقة كانوا قد قضوا في ذلك اليوم، لا بسبب ذنب اقترفوه بل لأنهم وُجدوا مصادفة في المكان حين هوجم الأمريكيون. لم يكونوا سوى أضرار جانبية، لا أكثر. ماتوا لأن الأمريكيين كانوا هناك في المقام الأول. إلا أن الجندي الأمريكي لم يكن يبالي. كل ما كان حريصاً على القيام به هو الاهتمام بالضحايا الأمريكيين، بالسفارة الأمريكية. لا شيء آخر كان ذا أهمية.

بعد ظهر ذلك اليوم فعلت شيئاً لم يسبق لي أن فعلته من قبل. أغلقت هاتفي الجوال. حين زوَّدَني دانييل به طلب مني أن أحمله معي كل الوقت. وكنت قد فعلت. كان مفتوحاً دائماً، تحسباً لاتصال أحد المسؤولين معي، أو أحدهم من بيشاور، أو حتى خالد الذي كانت اتصالاته الهاتفية مسجلة دائماً. أما في ذلك اليوم فقد أقدمت على إغلاقه وتركه مرمياً على الطاولة بجانب سريري.

مشيت ساعات طويلة عبر لندن من عصر ذلك اليوم حتى ساعات متقدمة من السهرة. كل ما كنت قد حاولت إبقاءه بعيداً عن عقلي عاد واندلق دفعة واحدة. بدا كما لو أن سداً عملاقاً تعرض للانهيار. ذكريات ما كنت لأتصور أنها وقعت، كانت قد عادت فجأة. أبواي يتشاجران. أخي يُقتل بالرصاص في باحة المدرسة. داني التيس وأذني وإدوار وحكيم وأمين وياسين ولوران وطارق واجتماعي الأول مع جيل والرحلة بالسيارة إلى المغرب والمداهمات ومن ثم الباكستان وأفغانستان والمدافع والقنابل والشيشان وابن الشيخ وأبو بكر وأسد الله وأبو خبب وتفجير السفارة في إسلام أباد والتئام شملنا، جيل وأنا، في استانبول. صورة بعد صورة بعد صورة، مثل مجموعات الصور الضوئية التي كان جيل وألكساندر ومارك ودانييل وبني يعرضونها علي دائماً. ولكن كلاً من هذه الصور كانت خلافاً لحال الصور الضوئية، تعني شيئاً بالنسبة إلي، حتى وهي تمر برأسي وتغير شكلها. جميعاً بدت نُذُر شؤم ونَحْس الآن.

عندما عدت إلى الشقة في ساعة متأخرة من تلك الليلة كان جرس الهاتف يرن. رفعتُ السماعة.

'لقد اتصلا بي.' كان ذلك صوت فاطمة.

'ومن اتصل بك؟' سألت.

قالت: 'مارك وألكساندر. أخفقا في العثور عليك. لم يكن جوالك معك. يريدان أن تتصل بهما فوراً.'

لم يكن قد سبق لأي شخص من الأجهزة أن اتصل بفاطمة. كنت قد زوَّدْت جيل بعنوانها سابقاً، غير أنني لم يخطر لي احتمال إقدامهم على استخدامه. أدركت مباشرة أن الأمر يجب أن يكون خطيراً، فاتصلت برقم مارك وتركت رسالة. عاود الاتصال على نحوٍ شبه آني، ورتبنا موعد لقاء صباح اليوم التالي. استطعت أن ألمس من صوته أنه كان شديد التوتر.

حين وصلت إلى الشقة، وجدت أن مارك وألكساندر كانا هناك قبلي. جلسنا وبدأ ألكساندر الكلام. قال: 'قد يبدو هذا مفاجئاً، ولكننا قررنا، بسبب تفجيرات الأمس، التعجيل ببرنامج سفرك إلى أفغانستان.' ثم دفع عبر الطاولة تذكرة سفر جوية نحوي وهو يقول: 'ستغادر إلى داكار في وقتٍ لاحق من اليوم.'

لم يكن أي جانب من جوانب الأمر منطوياً على مفاجأة استثنائية بالنسبة إلي. شعرت بقدرٍ لا يصدق من الراحة. كانوا يستطيعون إرسالي إلى أي مكان، شرط تمكيني من مغادرة لندن.

جاء دور مارك في الكلام. قال: 'نريدك أن تعود إلى شقتك وتحزم ما أنت بحاجة إليه في البداية. أما الباقي فسنرسله إليك.' ثم مال قليلاً إلى الأمام. وهمس: 'اترك كال ما من شأنه أن يربطك بلندن - أرقام هواتف، عناوين، صور، كل شيء.'

عند تلك اللحظة بات الأمر واضحاً: كان البريطانيون يريدون أن يتخلصوا مني. كُنْتُ مفقوداً يوم حصول التفجيرات. في الحقيقة، يجب أن يكونوا قد توجسوا من كوني عضواً في خلية نائمة وقد اختفيت لمتابعة تنفيذ مهمة معينة. بالطبع لم أكن قادراً على لومهم. كنت قاتلاً محترفاً، عالي التدريب. منذ البداية لم يكونوا قد وثقوا بي؛ كنت أعرف ذلك. كنت قد عاندتهم وضغطت عليهم في بعض الأمور، مثل مسألة الأموال. ثمة أشياء أخرى رفضت القيام بها. وأفترض أن موقفي السياسي لم يكن هو الآخر يحظى بإعجابهم. ربما كان الوضع أسهل لو كنت قد رأيت العالم عبر مقولتي الخير والشر البسيطتين.

يجب أن يكون البريطانيون قد احتاروا في تحديد الجانب الذي كنت أقف في صفه فعلاً. بالطبع، أنا كنت على يقين بشأن الجانب الذي أقف في صفه؛ كنت عميلاً مزدوجاً. كنت قد عشت في العالمين كليهما، وفهمتهما كليهما. غير أنني لم أكن، على الإطلاق، أعمل بأوامر ابن الشيخ أو أبي زبيدة وأنا في لندن. ذلك كان واضحاً بالنسبة إليَّ على الدوام، وإن لم يكن كذلك بالنسبة إليهم.

في النهاية، كانت لدى البريطانيين، كما أعتقد، صورة في عقولهم عما ينبغي لأي جاسوس أن يكونه، وأنا لم أكن قد استطعت في أي وقت من الأوقات أن أكون عاكساً لتلك الصورة. أنا لم أكن جيمس بوند المناضل في سبيل الملكة والوطن. أعتقد أنني أربكتهم دائماً. أما الآن، في اليوم التالي لنسف اثنتين من السفارات، ربما أرعبتهم أيضاً.

طلب مني مارك أن أترك كل ما من شأنه أن يربطني بلندن، فناولته الهاتف الجوال الذي كان دانييل قد زوّدني به قبل عامين.

'لا، ماذا تفعل؟ تستطيع الاحتفاظ به' قال دافعاً الهاتف نحوي. 'خذه معك إلى داكار. تستطيع تزويد المسؤول عنك هناك به.'

حاول البريطانيون أن يتذاكوا، غير أنهم لم يستطيعوا قط أن ينجحوا في ذلك. سألت مارك: 'أنتم لا تثقون بي مئة بالمئة، أليس كذلك؟'

بالطبع، كنت أعرف الجواب سلفاً، كما كان هو أيضاً يعرفه. طوال بقاء الجوال معي، كان البريطانيون سيبقون قادرين على تحديد مكاني وتعقبي. صحيح أنهم كانوا يريدون أن يتخلصوا مني، ولكنهم كانوا أيضاً راغبين في معرفة المكان الذي أكون فيه بدقة في كل دقيقة من دقائق النهار والليل.

عندما وقفنا استعداداً للذهاب، رتبت مع ألكساندر موعداً للقاء كي يوصلني إلى المطار. كان واضحاً أنني لن أرى مارك مرة أخرى، فصافحته وقلت له وداعاً. ثم ذهبت إلى الشقة للملمة حوائجي.

في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم، نهلت عدداً من كؤوس الشراب في المطار مع ألكساندر قبل مغادرتي. بين الثلاثة كنت أكثر ميلاً إلى ألكساندر. كان بالغ الجدية رغم حداثة سنه، وكنت أستطيع أن أرى بوضوح أن عمله كان ذا أهمية بنظره.

في أحد المنعطفات قلت له: 'أرجو ألا أكون قد ضيعت وقتك!'

فهم ألكساندر ما كنت أقوله. كان يدرك أنني لم أكن سعيداً في لندن. علّق قائلاً: 'أنت لم تضيع وقتنا. أستطيع أن أؤكد لك ذلك. ليتك ترى كدسة الملفات التي نظمناها بالاستناد إلى كل ما أفدتنا به. إنها أطول مني.'

أشْعَرني بالامتنان إذ قال ذلك.